سلسلة الأعمال المترجمة (4) ترجمة آلية

طرابلس الجديدة

وما رأيته في المناطق الداخلية

بقلم إثيل براون

مع 58 صورة توضيحية

ترجمة آلية

توفيق عيّاد الشقروني



مؤسسة
Libyan Word Bridge
chicago, Illinois
2025

سلسلة الكتب المترجمة (4)
العنوان الاصل باللغة الانكليزية:

THE NEW TRIPOLI
ANDWHATI SAWIN THE HINTERLAND

المؤلف: ETHEL BRAUN
الترجمة: تمت بواسطة الذكاء الاصطناعي مع التعديلات اللازمة.
إشراف وتنفيذ: توفيق عياد الشقروني
الناشر: مؤسسة: Libyan Word Bridge. chicago, Illinois.2025W
مصدر الكتاب:

THE NEW TRIPOLI
ANDWHATI SAWIN THE HINTERLAND
By ETHEL BRAUN
WITH 58 ILLUSTRATIONS
T. FISHER UNWIN LONDON: ADELPHI TERRACE LEIPSIC: INSELSTRASSE 20
First Published in1914

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

كلمة الناشر

من قلب شغفنا بالمعرفة، ورغبتنا الصادقة في بناء جسور متينة بين الثقافات، انطلقت مؤسسة "Libyan Word Bridge" لتكون أكثر من مجرد دار نشر، بل لتكون منصة ثقافية حقيقية، تتيح للقارئ الولوج إلى عوالم المعرفة الغربية، وتشاركه رحلة استكشاف الآفاق الفكرية والأدبية المتنوعة. نسعى جاهدين إلى سد الفجوة المعرفية، وإثراء المحتوى العربي بمواد علمية وأدبية ذات قيمة حقيقية، مستفيدين من الإمكانات الهائلة التي يوفرها التطور المتسارع في مجال الترجمة الرقمية، ومن توفر العديد من الكتب التي أصبحت خارج نطاق حقوق الملكية الفكرية، لتصبح متاحة للجميع دون قيود أو حواجز.

نعلم جيدًا أن الاعتماد على الترجمة الإلكترونية، على الرغم من إيجابياته الكثيرة في الوصول إلى كم هائل من النصوص، لا يزال يشكل تحديًا حقيقيًا يواجهنا بمسؤولية كبيرة. فما زالت هذه التقنية في طور التطور، وقد تعجز أحيانًا عن نقل المعنى بدقة متناهية، أو التعبير عن جماليات اللغة الأصلية، أو نقل المشاعر والأحاسيس التي تحملها الكلمات. إلا أننا نرى في وضوح هذه الترجمة وقابليتها للفهم، دافعًا قويًا للاستمرار في هذه التجربة، فهدفنا الأسمى ليس مجرد نقل الكلمات، بل إتاحة المعرفة وتعميم الفائدة منها، وجعلها متاحة لأكبر شريحة ممكنة من القراء.

ونحن على ثقة بأن القارئ، بوعيه وفطنته، سيقدر قيمة هذه الجهود، وسيتجاوز أي قصور لغوي أو أسلوبي قد يظهر في بعض النصوص، وسيتعامل معها بعقل نقدي واعٍ، مدركاً أن الترجمة، مهما بلغت دقتها، تبقى في النهاية وجهة نظر بشرية، تحمل معها جزءاً من شخصية المترجم وخلفيته الثقافية.

إننا إذ نقدم هذه الترجمات، فإننا نضع نصب أعيننا هدفاً آخر لا يقل أهمية، وهو أن تكون ترجماتنا محايدة وموضوعية قدر الإمكان،

وأن تكون بمثابة مرآة تعكس بصدق رؤية المؤلف الأصلية، لا أن تكون صدى لأهوائنا أو تحيزاتنا الشخصية. فكم من مرة رأينا كيف أن التوجه الأيديولوجي للممولين، أو الخلفيات الفكرية للمترجمين، أو حتى المصالح التجارية، قد أثرت على طبيعة الترجمة، وشوهت بعض معانيها، أو حرفتها عن مقاصدها الأصلية. هذه الاعتبارات مجتمعة، تخلق في كثير من الأحيان قيوداً غير مرئية، قد تُنتج ترجمات مُوجّهة أو منقوصة، لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤلف بشكل كامل وصادق.

لذلك، فإننا في مؤسستنا نتعهد بأن تكون ترجماتنا جسرًا آمنًا للمعرفة، لا يشوبه أي تحيز أو تلاعب، وأن يكون هدفنا الأساسي هو خدمة القارئ وتزويده بالمعلومة الصحيحة، دون توجيه أو فرض رؤى مسبقة. سنحرص على تقديم النصوص المترجمة بأمانة وموضوعية، تاركين للقارئ حرية الفهم والتفسير، وتكوين القناعات الخاصة به، بناءً على وعيه وفهمه الخاص. وسوف يقتصر تدخلنا على إضافة بعض الشروح أو المعلومات التي نرى أنها ضرورية لتقريب القارئ من المعنى المقصود، أو لتوضيح سياق النص، أو لإبراز بعض الجوانب الثقافية التي قد لا تكون مألوفة لديه، مع الحرص على عدم فرض أي رؤية أو رأي شخصي.

وبالمقابل، فإننا نؤكد أن تقديمنا لهذه الكتب لا يعني بالضرورة تبنينا أو موافقتنا على كل ما ورد فيها من آراء واستنتاجات، أو أننا نؤيد المؤلف في كل ما ذهب إليه من أفكار أو تصورات. قد نختلف مع المؤلف في بعض القضايا، أو نرى أن بعض أوصافه غير لائقة أو غير مقبولة، ولكننا نؤمن بحق القارئ في أن يرى النص كما هو، دون تعديل أو تلطيف، حتى يكون رأيه عن الكتاب والمؤلف مبنيًا على فهم كامل ووعي تام، وحتى لا نكون نحن الحكام على قيمة النص أو مصداقيته. وحتى نكون أكثر صراحة معكم.

إننا نعترف أن الترجمة هي عمل بشري، وأن المترجمين بشر معرضون للخطأ والسهو، وأن بعض النصوص قد لا تكون دقيقة، ولكننا في الوقت

نفسه نؤكد أننا نبذل قصارى جهدنا لتقديم ترجمات عالية الجودة، وأننا نعتبر القارئ شريكًا لنا في هذه المسؤولية، ونرحب بأي ملاحظات أو تصحيحات منه، بل نشجعه على ذلك.

لا يفوتنا أن ننبه القارئ إلى أن بعض المعلومات والاستنتاجات الواردة في هذه الكتب قد لا تعكس الحقائق العلمية أو التاريخية الراهنة، نظرًا للتطور المستمر للمعرفة والبحث العلمي. ونحن على ثقة بأن القارئ الواعي سيأخذ هذه النقطة في الاعتبار، وسيتعامل مع هذه الكتب بمنظور نقدي، وبما يخدم إثراء معارفه وتوسيع آفاقه. ففي نهاية المطاف، نؤمن بأن الترجمة هي رحلة مستمرة، لا تنتهي عند الوصول إلى الكلمات، بل تتعداها إلى فهم الأفكار، وتحقيق التواصل الحقيقي بين الثقافات، وتكوين رؤية أكثر شمولاً ووعياً للعالم من حولنا. وهي أيضاً مسؤولية عظيمة، نحملها على عاتقنا بكل ما أوتينا من جهد وإخلاص.

الناشر

2025م

ملاحظات المترجم:

- الكاتبة تخلط في سردها بين مشاهداتها المباشرة وبين معلومات من كتب خارجية.
- تهتم الكاتبة بتتبع الخرافات لتؤكد مدى تخلف البلاد.
- ثلاثة فصول (23-24-25) من الكتاب عن الامازيغ وعاداتهم وفلكلورهم كتبوا بالكامل عبر الاقتباس من كتب الرحالة والمستشرقين. عن بلاد المغرب الاقصى ولا علاقة لهم بليبيا.
- الكتاب رغم رصده لمظاهر الحياة في ليبيا الا انه يظهر دعاية واضحة للمستعمر الايطالي.

فهرس المحتويات

طرابلس الجديدة

وما رأيته في المناطق الداخلية

بقلم إثيل براون

مع 58 رسماً توضيحياً

ترجمة آلية

توفيق عيّاد الشقروني

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

الفصل الأول الانطباعات الأولى

على متن "ممفي" - الانطباعات الأولى - سوق الخضار - القنصلية البريطانية - زيارة إلى منزل عربي - شارع العزيزية.

كانت السماء صافية، والبحر الأبيض المتوسط يبدو كبحيرة زرقاء لامعة. على الرغم من أننا كنا في شهر أكتوبر، كانت الشمس ما تزال حارقة وكأنها شمس أغسطس. عند الساعة الثانية بعد الظهر، ظهرت لنا طرابلس لأول مرة ونحن على متن السفينة «ممفي». لكن ما شاهدناه أولًا لم يكن المدينة ذاتها؛ بل كان ذاك الخط الطويل من الجبال الباهت الذي يلوح في ضباب الأفق البعيد - كانت تلك حمص.

بعد ساعة أخرى، بدا شاطئ طرابلس يقترب. ومع انعطاف «ممفي» للدخول إلى القناة واقتراب قارب المرشد، أصبحت طرابلس في الأفق واضحة تمامًا: صورة ظلية قوية ومدهشة تقف بصلابة على خلفية ضوء يتراقص من شدة الحرارة.

في قلب المشهد، تبرز الخطوط الحادة لقلعة الوالي، المقر القديم لحاكم طرابلس، وعلى اليمين يظهر الحصن بجدرانه الحمراء. هنا وهناك، تخترق مئذنة رشيقة أو قبة مستديرة لمقام خط الأسطح المنتظم للمدينة؛ وفي الخلفية، يقف صف من أشجار النخيل كحافة خضراء تامة وبوضوحها المشرق. تتضافر كل هذه العناصر لترسم مشهدًا يتمتع بجمال وجاذبية نادرين. وبعيدًا إلى اليسار، خارج أسوار المدينة القديمة، تلفت النظر مجموعة صغيرة من الفيلات البيضاء الجديدة، وهي أول إشارة مرئية على قدوم «الحضارة الجديدة» التي ستُطعَّم على صلب الحياة القديمة.

لكننا الآن هنا، لقد وصلنا بالفعل.

ترسو السفينة «ممفي»، ويحيط بنا صخب وضجيج عملية النزول المعتادة. كانت الحرارة شديدة وغير معهودة لهذا الوقت من العام، وبدا الأمر – يا للإطالة! – وكأن وقتًا طويلًا مر قبل أن نجد أنفسنا، نحن وصناديقنا وحقائبنا العديدة، مستقرين في القارب الصغير الذي يتأرجح صعودًا وهبوطًا على نحو غير مريح. كان لدى البحارة العرب الكثير ليقولوه لبعضهم البعض ولكل من حولهم، لكننا أخيرًا ننطلق صوب رصيف الإنزال. فالميناء ليس عميقًا بما يكفي لاستقبال أي باخرة كبيرة، غير أن العمل على توسيعه مُقرر أن يبدأ قريبًا.

بمجرد النزول، كان علينا اجتياز الجمارك، ولكن بما أنه لم يكن لدينا ما يستوجب التصريح، مررنا بسهولة ويسر. بصحبة مضيفنا الذي استقبلنا، بدأنا السير نحو الفندق الذي سنقضي فيه الشهرين أو الثلاثة أشهر القادمة. يا له من فوضى! ويا له من اختناق!—مشاة، وحمير، وعربات؛ أوروبيون وعرب يتدافعون ويحتكون. البغال مثقلة بالبضائع، والعرب يحملون الأكياس، والحمير في كل زاوية، ومن كل اتجاه تُطلق صيحة «بالك! بالك!» المألوفة—التي هي الطريقة الشرقية اللبقة لطلب إفساح الطريق. أما التعبير الأقوى «بَرَّا! بَرَّا!»، فقلما يُسمع في طرابلس كما في الأماكن الأخرى—وهذا ما لاحظناه فورًا.

شقنا طريقنا عبر تلك المتاهة سيرًا على الأقدام؛ فالمسافة قصيرة جدًا ولا تحتاج إلى عربة. وفي طريقنا، مررنا بقوس ماركوس أوريليوس الروماني العريق والجميل، الذي يعمل الإيطاليون على ترميمه، بعدما أزالوا منه التجار العرب الذين كانوا يتخذونه سكنًا و«مقهى عربيًا». يدعم السقف المقبب أربعة أقواس تشكل مربعًا، بينما يمكن رؤية بقايا نقوش بديعة أسفل التيجان الكورنثية، ومن بينها تمثال مجنح للنصر محفوظ بشكل ملفت. وتظهر الأسس القديمة عميقة، على بعد حوالي عشرة أقدام تحت مستوى الشارع الحالي.

ثم ننعطف بحدة إلى اليسار، فيا له من شارع ينبض بالحياة! إنه

ضيق ومقوَّس، جدرانه وأقواسه مغطاة بلون أحمر وردي صريح، يتدرج في منتصف الطريق ليصبح أزرق سماويًا شاحبًا. تصطف على جانبيه دكاكين الفاكهة – فاكهة بكل لون: البرتقالي، والقرمزي، والأخضر – وبائعون يرتدون ملابس متنوعة الألوان مثل محتويات أكشاكهم تمامًا. إن قوة الألوان وتدفق الحركة في طرابلس تخطف أنفاس القادم الجديد بقوة، مهما كان مألوفًا لديه المشهد الشرقي.

مئة ياردة أخرى أو نحو ذلك، وها نحن «في المنزل». وجدت بسعادة أنني أستطيع النظر من نافذة غرفتي على أقواس وجدران تحمل نفس اللون الأحمر الوردي العميق الذي لفت أنظارنا في الطريق من الميناء.

استراحة قصيرة وعشاء خفيف، ثم استأجرنا إحدى العربات المتوفرة في الساحة القريبة وتوجهنا إلى ساحة السوق. هناك، ورغم حلول المساء، ما يزال كل شيء يزخر بالحركة والنشاط. نمر أولًا بسوق الخبزة، أو سوق الخبز، حيث تصطف صفوف طويلة من الأكشاك المغطاة بأرغفة خبز مستديرة ومسطحة. والملاحظ أن جموع العرب هنا في طرابلس يفضلون ارتداء الطرابيش البيضاء بدلًا من الحمراء المعروفة.

ونشاهد النساء محجبات بأغطية بيضاء تُسمى هنا «برقع»[1]، ووجوههن مغطاة بالكامل ما عدا عين واحدة غامضة ومعبرة. وتتجول النساء البدويات أيضًا بملابسهن الحمراء الخلابة—يتنقلن بلا انقطاع ذهابًا وإيابًا من أكشاك الخبز إلى تجار الخضار، يشترين وجبة المساء.

بعد ذلك، نمر بالمقاهي العربية، حيث يشكل الهدوء العميق للمجموعات الجالسة في الخارج تباينًا صارخًا مع الحشود التي تتدفق حولهم بلا انقطاع. أما صوت الفونوغراف المنبعث من أحدها، فكان يمكن أن يكون نغمة مزعجة لولا أنه كان لحنًا عربيًا ممتدًا ومستمرًا.

1- تم تحويلها إلى الإنجليزية لتصبح «barracan».

(المترجم) في طرابلس يقال له «الفراشية»، ومن هنا نلحظ ان الكاتبة تسعمل معلوماتها من المصادر المكتوبة في كثير من الاحيان بدل من التعرف المباشر من الاهالي،وهذا ما سوف نلاحظه في عديد المرات.

هنا تقع حظيرة الجمال - متجمعة في مجموعات كبيرة مع سائقيها؛ ومن هنا وهناك تومض نيران صغيرة - كلها استقرت لتقضي ليلتها في العراء.

فوقنا يضيء قمر مكتمل وضخم، وخلفنا ينتشر توهج برتقالي وقرمزي للشمس الغاربة، ينير جدران القلعة القديمة وينثر بريقه المهيب على كل شيء. هكذا كانت ساحة السوق في طرابلس كما رأيناها للمرة الأولى: مركز حياة المكان، نابض بالحيوية، ومثير للإعجاب بقوة لا تُنسى.

عدنا مرة أخرى في الصباح التالي لنلقي نظرة ثانية على ساحة السوق في ضوء الشمس القوي والحارق. تبدو الساحة واسعة إلى حد ما الآن، لكنها كانت في السابق أطول بكثير، وتمتد وصولاً إلى الميناء، وقد اقتُطع جزء منها منذ ذلك الحين لأغراض البناء. ويظهر كعك الخبز في ضوء النهار بلون أصفر ليموني لامع، ويبدو حقًا أن كميته تكفي لإطعام جيش كامل!

لكن الضجيج والحركة الصباحية تفوق تلك التي شهدناها مساءً بعشرة أضعاف، ما يجعل من الصعب العثور على زاوية خالية لالتقاط الصور. يبدي الجميع اهتمامًا بالغًا بإجراءاتي مع الكاميرا، فالطرابلسيون هم من أقل الناس تكلفًا. ويبدو أن زنجيًا واحدًا، ذو ابتسامة واسعة وعريضة، يعتقد أن الكاميرا خُصصت خصيصًا لإبراز جماله. فأي اتجاه أتجه إليه، يبتسم وجهه لي، ويُصاب بخيبة أمل شديدة عندما أبعده بفظاظة بكلمة «بالك».

خلف سوق الخبز، ومقابل الجدار، يقع ركن الزنوج، وهم فئة اجتماعية أعلى تبيع العطور والخرز وما إلى ذلك. وتوقفنا لشراء بيضة بحجم بيضة طائر الشحرور، مصنوعة من العظم، يضع فيها التاجر عجينة من مسحوق المسك ممزوجة ببضع قطرات من عطر الياسمين. كنت أود أن أشتري قلادة كاملة منها، لكني اكتفيت بواحدة لأن الرائحة قوية جدًا.

ونرى بعد ذلك سوق الجمال بمختلف أحجامها. وبالقرب منه،



منظر عام لطرابلس



سوق الخبز

مجموعة أخرى من العرب يبيعون الأبقار الهزيلة، والثيران، والعجول، والأغنام، والماعز. كان المشهد هادئًا حتى اندفع فجأة رجلان، عربي وزنجي، كانا يتفاوضان على ثور صغير، وبدآ في ملاكمة عنيفة مفاجئة. كان الأمر كعاصفة مفاجئة في بحر هادئ. سرعان ما تحول الضجيج إلى صمم بينما انحاز جميع المتفرجين، يصرخون على بعضهم، حتى تدخل إيطالي ضخم وفصل بينهما. وبعد لحظات، عاد الاثنان يناقشان سعر الثور بأكثر الطرق ودية. وتكتمل صفوف أكواخ الخضار والفاكهة بفيض من الألوان. هذا هو قسم الزنجيات، اللاتي يشكلن خلفية مؤثرة لفلفلهن القرمزي، وبطيخهن البرتقالي والأخضر، وتمنهن الذهبي، وبصله الأرجواني. يتجول بائع الماء بين الأكشاك، يحمل سلته الخضراء المصنوعة من الصفيح المليئة بالأكواب الملونة، وعلبته الكبيرة من الصفيح، وهو ينادي بصوته المألوف: «اشرب! اشرب!» بالقرب منه يقف بائع الفخار الزنجي. تبدو أوانيه كلها ذات لون رمادي باهت وكأنها كومة ضخمة من الشظايا، وقد اكتسب وجه البائع الهيئة نفسها تقريباً من قربه المستمر لبضاعته. أما بائعو الحطب، فلهم أكوامهم من العصي المكسورة وسيقان النخيل مباشرة مقابل شارع الحدادين، شارع الباب الجديد. وفي نهايته، تقع إحدى آبار العرب القديمة غير المستخدمة الآن، والتي تتميز بعموديها الكبيرين من الطوب الشبيهين بالأذنين. وهناك سوق منفصل، ساحة مسوَّرة بثلاثة مداخل، مخصص للحلفا (الإسبارتو). كان هذا المنتج من أغنى غلات البلاد، لكن العرب توقفوا عن جلبه للبيع منذ اندلاع الحرب. تنمو الحلفاء في شجيرات رمادية صغيرة على تخوم الصحراء. أما سوق السمك، القريب من الميناء، فهو حديث تمامًا شيده الإيطاليون. وقد شهد ضجيجًا يفوق مجموع ضجيج الأسواق الأخرى. العديد من الصيادين هنا هم من المالطيين. وبينما كنا هناك، أحضر أحدهم سمكة قرش ضخمة للبيع، وفي أقل من دقيقتين تم تقطيعها وبيعها بالكامل. طوال هذا الوقت كانت سحب سوداء كثيفة تتجمع في السماء، ثم سقطت أولى قطرات المطر الغزيرة،

وبالكاد وجدنا وقتًا للوصول إلى المنزل قبل أن تندلع العاصفة بضراوة. كان هذا هو أول مطر يهطل على طرابلس منذ خمسة أشهر. فموجة الحر الخانقة التي استمرت في سبتمبر، حيث هبت رياح القبلي الحارة باستمرار ووصلت الحرارة إلى 104$ درجات فهرنهايت في الظل، كانت قد جففت الأرض. لذا، جلبت العاصفة معها الحياة الجديدة للمكان.

منذ الاحتلال، أعاد الإيطاليون تسمية جميع الشوارع، أو بالأحرى منحوا أسماء رسمية للشوارع التي لم تكن تحمل أسماء في العهد التركي. وهكذا، فإن «شارع القنصلية البريطانية»، كما كان يُعرف سابقًا، أصبح الآن شارع إسبانيول. ويقع مقر ممثلنا في قصر عربي قديم وفخم، يتميز بفناء مفتوح جميل جدًا، والعديد من الغرف الكبيرة والواسعة، بالإضافة إلى شرفة تطل على منظر رائع. أما «مفتاح»، الساعي، فقد عمل في خدمة القنصلية البريطانية لأربعين عامًا، خلفًا لوالده الذي شغل المنصب ذاته لأكثر من خمسين عامًا، أي قبل الاحتلال التركي لطرابلس، في عهد سلالة القرمانلي القديمة. مفتاح، وهو رجل طويل القامة وعريض المنكبين، استقبلنا بكرم الضيافة العربية الأصيلة واللباقة، وعندما ذهبنا لزيارته في منزله في اليوم التالي. هناك، التقيت بزوجتيه الاثنتين وزوجة ابنه. وأبدينا جميعنا اهتمامًا كبيرًا بمجوهرات بعضنا البعض، وفي غرفة الابنة عُرضت عليّ جميع التطريزات التي أنجزتها بنفسها. وقد عملت لمدة عامين قبل زواجها على تطريز الوسائد والصناديق والأغطية، وكلها مُزينة بجمال متقن بالحرير والفضة. هي تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا فقط، ومتزوجة منذ ستة أشهر، لكنها لم تعد تقوم بأي تطريز الآن. ومن الواضح أن هذا يُعدّ ترفًا يجب التخلي عنه بعد الزواج.

كان المنزل والممر والفناء بأكمله يتمتع بنظافة تامة، وعندما علّقتُ بإعجاب على ذلك، قال مفتاح: «نعم، نحن نظيفون لأننا كنا دائماً مع الإنجليز، ونحن نحب ذلك.»

أهدتني زوجة الابن الجميلة الصغيرة تذكاراً ساحراً من زيارتي في شكل

صندوق مطرز، وبعد تناول بعض القهوة التركية اللذيذة، خرجنا إلى شوارع العرب الضيقة الهادئة، حيث كل شيء قديم وغامض. سرنا حتى وصلنا إلى الشارع الرئيسي في طرابلس، شارع العزيزية، بمبانيه الجميلة ومقاهيه الممتازة وحشوده العالمية وإضاءته الكهربائية. تُعدّ هذه الأخيرة نعمة حديثة منحها الإيطاليون للمدينة بأكملها. أما في ظل النظام التركي، إذا أراد المرء الخروج بعد حلول الظلام، كان عليه أن يحمل مصباحه الخاص. مصباح خاص! لم يكن هناك أي نظام إضاءة للشوارع على الإطلاق. وهكذا، تتنقل انطباعاتنا الأولى عبر النطاق الكامل، من القديم إلى الجديد، في هذه المدينة المليئة بالجاذبية والسحر.

الفصل الثاني: عبر الأسواق

نزهة عبر الأسواق - سوق الترك - سوق الحرير - سوق الروبة - صاغة الفضة - عمال الجلود - غروب الشمس من مئذنة الجامع الكبير.

أسواق طرابلس ليست بكثرة أو إثارة تلك الموجودة في تونس، لكنها تمتلك طابعها الخاص المميز. ومنذ الاحتلال الإيطالي، شهد هذا الطابع تحولات هنا وهناك. وكما ذُكر سابقًا، اقتُطع جزء كبير من ساحة السوق الكبيرة، وما كان يُعرف سابقًا بسوق الثلاثاء، وهو أكثر الأسواق ازدحامًا على الإطلاق، تحول الآن إلى شارع حديث تملؤه الفنادق والمقاهي والمحلات التجارية. وفي حالته الراهنة، لم يعد السوق يضاهي نصف ما كان عليه في الأيام الغابرة، حين كان يعج بالباعة ونشاطهم الدائم. ومع ذلك، ما يزال له سحره الخاص.

في الماضي، كان هذا السوق يضم مزيجًا من العرب، والبربر، واليونانيين، واليهود، والإيطاليين، والمالطيين، وكان الجميع يقصدونه كل يوم ثلاثاء لشراء مؤونة أسبوعهم. أما اليوم، فقد انتقل هذا السوق نفسه ليُقام يوم الجمعة في منطقة «سوق الجمعة»، التي تقع على بُعد حوالي ساعة بالسيارة من المدينة، في الطريق المؤدي إلى تاجوراء.

سوق الترك هو شارع طويل ومستقيم وضيق، وهو شارع مغطى بنوع من العريشة. يتخلل الضوء شبكة التعريشة المورقة، فيخفف من حرارة الشمس بلطف شديد، مما يشكل خلفية مؤثرة جدًا للمشهد البشري المتنوع الذي يتحرك بلا انقطاع ذهاباً وإياباً. وكان هذا السوق سابقاً مليئاً بالمتاجر التي يديرها الشوام، أما الآن فالتجار فيه هم إيطاليون ويونانيون وإسبان. هنا يمكنك شراء كل ما تريده تقريباً، وكل شيء حديث تمامًا. وفي منتصف الطريق يوجد المسرح الإيطالي الجديد، الذي يتسع لحوالي [1000] شخص ويحظى بشعبية كبيرة. كان في السابق مقهى تركيًا، به

راقصات وموسيقيون عرب، ما يوضح تطوره مع الزمن.

ولكن يوجد أيضًا مسجد جميل في سوق الترك، ينظر باحتشام شرقي أصيل إلى كل هذه الحداثة القائمة عند بابه. ويا له من باب رائع! إنه من الخشب المنحوت أو الملون أو المطلي بغنى، ومزود بدعامات رخامية، ويفتح على فناء مقوس؛ يبدو هادئاً ووقوراً جداً في خضم الحشد المتسارع.

على يسار السوق، نمر بعدة شوارع صغيرة تؤدي إلى الحصون. ثم نصل إلى سوق الحرير- وهو شارع نساجي الحرير الذين يمتلكونه بالكامل. ومن المثير للاهتمام أن نزوره من باب إلى باب. وأول من يستقبلنا هو رجل عجوز ذو وجه مشرق، يدعونا للدخول. يعمل هو ورجل أصغر منه بجد على نسيج يتميز بدقة وجمال رائعين. وأساس القطعة منسوج بخيوط فضية، يُدخل فيها الحرير الذهبي، ليكوّن في نهايته ثوباً داخلياً رائعاً لإحدى السيدات العربيات الثريات من الأسر الكبيرة، وتبلغ كلفته ما بين عشرة واثني عشر جنيهاً إسترلينياً.

في الدكان التالي، النسّاج، المتألق في معطفه القرمزي وطربوشه القرمزي، يعمل على نقش بديع باللون الأزرق. بينما يعرض ثالث تصميماً أرجوانياً ملكياً بحاشية فضية، وآخر ينسج قطعة من الذهب الخالص تتلألأ أشعتها تحت ضوء الشمس. والحرير الخالص يباع هنا بالوزن لا بالياردة، ويقال إنه لا يبلى أبداً.

وعند نهاية سوق الترك تماماً، يقوم ما كان يُعرف في عهد الأتراك بسوق الجمل، وقد أعاد الإيطاليون تسميته بسوق الربّع. إنه سوق قديم مغطى، وهو الوحيد تقريباً الذي يشبه أسواق تونس في مظهره. تصطف على جانبيه الأكشاك الصغيرة نفسها، يجلس فيها التجار العرب جميعاً أو يتمددون مسترخين، يدخنون، يشربون القهوة، ويتحدثون. من المفترض أنهم يبيعون شيئاً أحياناً، لكن ذلك يبدو آخر ما يشغلهم. ومن محاسن طرابلس أنك تستطيع أن تتنقل بين هذه الأكشاك صعوداً وهبوطاً دون أن يضايقك أحد بالإلحاح على الشراء، بخلاف ما يحدث في أماكن أخرى

من الشرق.

تُعرض هنا سجاد وبُسُط وستائر وأغطية أسِرّة وحُصُر وأقمشة متنوعة. السقف المقوّس مرتفع جداً، وفي أعلاه فتحات صغيرة يتسلل منها شعاع الشمس فيسقط على مواضع غير متوقعة، فيضفي على المكان جواً مهيباً وهادئاً، منعشاً ومميزاً للغاية.

وعندما نخرج من سوق الترك إلى اليسار، ثم ننزل عبر سوق المشير ونتجه يميناً، تستقبلنا رائحة قوية من العطر، محمولة على أنفاس الرياح الدافئة القادمة من أكشاك سوق العطّارة، حيث تُباع شتى أصناف العطور والأدوية الشرقية. وبعده بقليل نصل إلى سوق الصياغة، حيث شارع صاغة الفضة. وجميع العاملين فيه يهود، وهم صنّاع مهرة يتقنون أدق فنون صياغة الذهب والفضة. وهنا تجد كل أنواع الحُلي الغريبة البديعة التي تلائم الذوق الشرقي: من أساور ثقيلة، أقراط، خواتم فضية وذهبية بحبات مربعة منقوشة، وتمائم فضية على هيئة أهلة أو نجوم بثقب صغير لتعليقها على الصدر.

توقفنا ودار بيننا وبين أحد التجار نقاش شيّق حول قيمة زوج من هذه الحُلي النسائية العربية. طال بنا الأمر حتى توافقت وجهات نظرنا، وانتهى بنا المطاف إلى إبرام الصفقة، طبعاً بنصف السعر الذي عرضه في البداية. وقد اجتمع حولنا جمع من العرب، شغوفون برؤية البيع والشراء النزيه، وشاركوا في المساومة كأنها عرض حي، فصورتهم جميعاً في النهاية.

ومن هناك تابعنا جولتنا إلى سوق الحلقة. حيث يُباع الصوف بجميع مراحله، من الخام وحتى الجاهز للاستعمال. ففي الصباح الباكر تأتي النساء العربيات إلى هذا السوق لشراء الصوف الذي ينسجن منه «براقعهن». والسوق في غاية الجمال، تغطيه عرائش ممتدة على طول الشارع، تتسلقها النباتات الخضراء فتمنحه ظلالاً ناعمة. وهنا وهناك تظهر أفنية صغيرة مفتوحة تملؤها خيوط الصوف المعلقة لتجف. وعلى الجهة اليمنى نمر بمرابط بقبته البيضاء الناصعة وجدرانه الساطعة



عمال الجلود في شارع ريكاردو.

تحت وهج الشمس. وبعد مسافة قصيرة، إلى اليسار، نصل إلى سوق الخبز، الذي نعبره فنجد أنفسنا في شارع ريكاردو حيث تقع حوانيت عمال الجلود. حيث يتراص صف قصير من هذه المحلات على طول أروقة ذات أعمدة. ومن اللافت أن الأحذية الصفراء اللامعة، التي نعرفها جيداً من أسواق تونس، شبه غائبة هنا؛ لم أر إلا بضع أزواج منها، وكانت بألوان أكثر غمقاً ومطرزة بخيوط ملونة. كذلك وُجدت بعض الأحذية الصغيرة الأنيقة الخاصة بالسيدات العربيات، مصنوعة من الجلد القرمزي أو الأرجواني أو الأزرق، ومرصعة بالفضة. ولم تخلُ الدكاكين أيضاً من بعض الحقائب الجلدية السوداء أو القرمزية. لكن معظم المحلات متخصصة في صناعة سروج الخيل العربية بأشكال مبهرجة وزخارف لافتة. واللون الأحمر يغلب على هذه الصناعة، ما يجعل داخل الورش مشهداً بهيجاً. وعرضوا علينا سرجاً أسود أنيقاً مطرزاً بالفضة، صنع باليد بالكامل. وقد شدّني أيضاً زوج من الأحذية الجلدية القرمزية العالية، معد لسيدة عربية، يشبه إلى حد ما حذاء الفارس، مصنوع من جلد طري للغاية ومطرز بإتقان رائع.

رجعنا ثانية إلى الساحة الكبرى، متجهين صعوداً في شارع مسرام. على يسارنا ظهرت ثكنات المدفعية، وعلى يميننا المستشفى المدني. ثم انعطفنا فجأة يميناً صاعدين في زنقة سوق الحطب، حتى بلغنا ساحة واسعة تُعرف بسوق الخشب والعشب. هناك تُباع الأعلاف للجمال والحمير والبغال وسائر دواب المدينة، وتحملها الجمال على ظهورها لتوزيعها. وصلنا في وقت ازدحام شديد، إذ كانت قافلة كبيرة قد وصلت للتو وبدأت عملية التفريغ.

كانت الأمطار الغزيرة التي هطلت قبل يوم أو يومين قد تركت بركة عريضة في وسط السوق، عكست صورة خلابة: جدران وردية طويلة، نخيل باسقات بأغصان ريشية، وظلالاً متمايلة للعرب بثيابهم البيضاء وجمالهم المحملة. ومع اقتراب الغروب عدنا إلى قلب المدينة، إلى مدخل

الجامع الكبير للقرمانلي، حيث يجلس بعض العرب تحت الأروقة يبيعون الطرابيش البيضاء. هناك ينتظرنا صديق يحمل تصريحًا من القاضي، يتيح لنا فرصة نادرة لمشاهدة طرابلس من الشرفة العالية المحيطة بالمئذنة.

بعد صعود شاق عبر الدرج الحلزوني خرجنا إلى الشرفة لحظة الغروب، فإذا بالمدينة البيضاء تفيض تحت أنظارنا بوهج ذهبي أحمر يضفي عليها مسحة من السحر. وإذ تمتد أمامنا زرقة البحر الأبيض المتوسط العميقة من جهة، وتتصاعد خلفنا ألوان الغروب القرمزية والذهبية، برزت طرابلس كلوحة بديعة: مآذنها البيضاء، مقاماتها، أبراجها، وأسقفها التي تعانقها أشعة المغيب الدافئة.

وبينما كنا نقف مفتونين وصامتين، نستمتع بجمال هذا المنظر البانورامي الرائع، ارتفع صوت طويل مرتعش من الشرفة القريبة منا. إنه صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب، وهو نداء مألوف لكل من يعرف الشرق؛ ولكن يا له من تأثير مذهل أن تسمعه وأنت تقف في المكان ذاته الذي يقف فيه، وهو يصدح بالنداء عبر الفضاء!

يرتد النداء من مسجد مجاور، ثم يرتفع مجدداً—أبعد قليلاً هذه المرة، «الله إلا الله! محمد رسول الله».

بنظرة أخيرة طويلة، نزلنا الدرج الحلزوني المتعرج، عائدين من مدينة الأحلام تلك إلى الحياة الصاخبة في الأسفل.

الفصل الثالث: مساجد طرابلس

زيارة إلى القاضي - جامع قرجي - محراب الإمام - قبور عائلة قرجي- المؤذن - مكان الوضوء - خاتم سليمان - جامع الناقة - الجامع الكبير للقرمانلي - أروقة النساء - قبور القرمانلي - جامع درغوث.

في سوق الترك، وفي منتصف الطريق تقريباً على الجانب الأيمن، يقع مدخل رخامي قديم منحوت بشكل جميل. عبر هذا الباب ندخل لزيارة القاضي، وهو رئيس كل ما يتعلق بالشؤون الدينية الإسلامية في طرابلس. نصعد درجاً حجرياً قصيراً لنصل إلى غرفة انتظار مربعة وكبيرة إلى حد ما، ذات سقف مقوس، بينما نرى في الجهة المقابلة غرف انتظار أخرى أصغر حجماً يجلس أو يقف فيها مجموعات من العرب، منخرطين في محادثة حية. لقد جاؤوا جميعاً لمناقشة أعمالهم أو شؤونهم الزوجية مع القاضي.

من المدخل المنحوت ذي البلاط الفخاري الأزرق على اليمين، ندخل إلى غرفة طويلة وضيقة. وينهض لاستقبالنا من مقعده أمام طاولة عملية المظهر، رجل عجوز نحيل، تضيء عيناه الماكرتان الودودتان بترحيب حار بينما نصافحه. على أريكة قريبة من طاولته يجلس ثلاثة شيوخ عرب، نصافحهم جميعاً. يا لها من نماذج رائعة هؤلاء، يتمتعون بـ لباقة فطرية وسحر في السلوك، فالعربي دائمًا رجل نبيل.

نظرًا لوجود العديد من الأشخاص الآخرين في الغرفة ينتظرون دورهم، بالإضافة إلى آخرين في الخارج، نرى أن القاضي مشغول جدًا. لذا، على الرغم من دعواته المتكررة للبقاء، نستأذن ونغادر مع المزيد من المصافحات والمجاملات. فـ وقتنا ووقته مقسومان هذا الصباح.

تُعدّ هذه الزيارة إلى القاضي بمثابة مقدمة لسلسلة من الزيارات إلى مساجد طرابلس، والتي، مثل مساجد تونس، ليست مفتوحة للمارة. لا يمكن الدخول إليها إلا بتصريح من القاضي، أو برفقة مسؤول رسمي.

لكننا لا نواجه صعوبة لأننا برفقة كاف. سميرلي، المترجم الملحق بالمحكمة الإيطالية، والذي يعمل بمثابة «افتح يا سمسم» لنا.

يوجد في طرابلس اثنان وثلاثون مسجدًا إجمالًا، كبيرها وصغيرها، وأكثرها إثارة للاهتمام هو جامع قرجي والجامع الكبير للقرمانلي. مسلحين بالكاميرات، نبدأ جولتنا بزيارة جامع قرجي، الأغنى والأكثر زخرفة على الإطلاق. تم بناؤه عام [1809]، في عهد سلالة القرمانلي، ويقع بالقرب من مبنى الجمارك، قرب قوس ماركوس أوريليوس، وهو فخر مسلمي طرابلس.

وتقول الأسطورة أنه عندما اكتمل البناء تماماً، وأصبح المسجد قائماً بجماله الأخّاذ، قام الرعاة الأثرياء للمسجد باقتياد المهندس المعماري البائس إلى قمة المئذنة، ثم ألقوا به إلى الأسفل. كان هدفهم من ذلك منعه من بناء مثيل له مرة أخرى. ولكن يجب التعامل مع هذه الرواية بشيء من الحذر، شأنها شأن معظم الأساطير الأخرى المتداولة هنا.

مصطفى قرجي، وهو مواطن ثري جداً من طرابلس، كان هو المؤسس للمسجد. وقد تزوّج ابنة يوسف القرمانلي، آخر باشوات الأسرة، ودُفن أحفاده في هذا المسجد.

بهرنا بجمال واجهاته. فبينما نمر عبر الباب الخارجي إلى الممر الطويل الذي يمتد حول جانبين من المبنى، تواجهنا بوابة رائعة من الرخام الأبيض المطعَّم بقطع رخامية ملونة على الطراز الفلورنسي. والجدران مغطاة بالكامل ببلاط القيشاني (الخزف المزيّن)، بأنماط زرقاء وخضراء وصفراء وبيضاء، بينما يوجد مدخلان آخران على الجانب الأيمن، وهما أيضاً من الرخام المطعَّم، ولا يقلان جمالاً عن الأول.

بعد خلع أحذيتنا، كالمعتاد، وارتداء النعال الفضفاضة المعدّة للاستخدام، ندخل. ويذهل المرء للحظة بثراء الزخرفة وتنوعها. ففي كل جانب تتجلى الرخامات المطعَّمة، والأخشاب الملونة المنحوتة، والجص المخرم الدقيق، والزجاج الملون، والقيشاني متعدد الألوان.

المنبر، أو المحراب، كله من الرخام، ومطعَّم بنفس طراز الأبواب

بنقش تقليدي ملون، وله اثنتا عشرة درجة. يشكل عمودان نحيلان يعلوهما قوس مذهَّب المدخل. أما المحراب، حيث يؤم الإمام ويقود صلاة المؤمنين متجهاً نحو مكة، فيقع إلى يسار المنبر، وهو مصنوع من القيشاني والرخام.

هناك تسعة أعمدة من الرخام الأبيض، ولا يوجد شبر واحد من الجدران إلا وهو مغطى بالقيشاني أو بالجص الرقيق. هذا الأخير نادر في طرابلس، رغم شيوعه جداً في تونس. في الواقع، كان صانع جص تونسي هو من قام بكل أعمال الزخرفة الجصية الأخيرة في جامع قرجي، قادماً خصيصاً من تونس لهذا الغرض. لكننا نلاحظ أن الكثير من الجص الأبيض مطلي، وهو أمر لا نتذكر رؤيته في أي مكان آخر.

إلى الغرب، يوجد رواق كبير من الخشب المطلي المنحوت، حيث يبقى المؤذن أثناء الصلاة، مردداً الردود وقيادة المصلين. وفي إحدى زوايا المسجد توجد منضدة خشبية صغيرة للقراءة، تُستخدم لمرة واحدة فقط في السنة، في عيد المولد النبوي، ليقرأ منها الإمام الكتاب الخاص المتعلق بهذا الحدث.

نصعد إلى الرواق الطويل الذي يمتد حول ثلاثة جوانب من المسجد. كان هذا الرواق هو المكان الذي كانت النساء في زمن الحكم التركي يجلسن فيه خلف حواجز، يتمكنّ من الرؤية دون أن يُرَيْن. وقد أُزيلت هذه الحواجز الآن، إذ لا تذهب الشابات العربيات إلى المساجد؛ بل لا تظهر فيه أحياناً سوى العجائز جداً. وفي وسط هذا الرواق تمامًا، الذي يتميز بسقفه الجميل من الخشب المطلي، يوجد المكان المربع الكبير الذي يجلس فيه المؤذن كما ذكرت. وللمؤذن الكثير من الأعمال، فبالإضافة إلى مهامه داخل المسجد، عليه أن يؤذن للصلاة من المئذنة خمس مرات يومياً: قبل شروق الشمس بساعة ونصف، عند الظهر، الساعة الثالثة والنصف، عند غروب الشمس، وأخيراً بعد غروب الشمس بساعة ونصف. في كل أذان يلزمه وفقاً لسنة النبي أداء عدد محدد من الركعات، اثنتين أو ثلاث

أو أربع حسب الحالة، لكنه إذا شاء يمكنه زيادة العدد اعتماداً على شعوره الخاص.

ثم نزور مقابر عائلة قرجي، حيث قبر مصطفى المؤسس بشاهده الطويل المنقوش بأحرف مذهبة ويعلوه طربوش حجري أحمر، وقبر ابنه الحاج علي بجانبه، إلى جانب قبور كثيرة أخرى. تقع هذه المقابر في قبو مفتوح بجوار المسجد مباشرة، على يمين المنبر، ويمكن رؤيتها أيضاً عبر شبكة من داخل المسجد.

وتوجد أكواب صغيرة محفورة على أغطية القبور لتكون أوعية ماء للطيور؛ وهي عادة عربية شائعة وذات طابع شاعري، كما يبدو لي. فالتر فون دير فوغلوايد، الشاعر الألماني الشهير في العصور الوسطى، طلب في إحدى قصائده أن تُحفر أكواب مماثلة على شاهد قبره ليتمكن من سماع أغاني الطيور التي أحبها كثيراً - يا لها من مصادفة غريبة. وعلى جوانب بعض القبور منقوش ختم سليمان لإبعاد الأرواح الشريرة. وقبة المصلى المخصص للمقابر مصنوعة من الجص الملون، مثقوبة بطريقة تشبه الدانتيل، في مشهد بديع.

هناك فناء صغير آخر، غير مسقوف إلا بعريشة من أوراق الشجر المتسلقة، تحوي جميع قبور النساء من العائلة. عبر ممر ضيق نصل إلى فناء آخر مرصوف، تفتح منه أبواب خمس عشرة غرفة للطلاب، حيث يدرسون الدين، يرتلون القرآن، أو يساهمون بطرق مختلفة في خدمة المسجد.

الآن نمر بـ «محل الوضوء»، أو مكان الوضوء للمصلين قبل دخولهم المسجد. وفي المذهبين المتبعين في طرابلس من بين المذاهب الأربعة في الإسلام، الحنفية والمالكية، ينتمي جامع قرجي إلى المذهب الحنفي. وفي هذه المساجد، يجب أن يكون الماء المستخدم للوضوء شخصياً وغير ملموس من قبل أي شخص آخر، لذا يوجد صف طويل من الحنفيات فوق حوض حجري. وعند الضغط على أي منها، يندفع الماء، ويتوضأ كل

مصلٍ وفق السُنة، ثلاث مرات متتالية، فالماء يغسل الفم والأنف والوجه واليدين والذراعين حتى المرفقين، والقدمين حتى تصبح نظيفة.

يقع مكان الوضوء قرب المخرج، ومنه نخرج من جامع قرجي الجميل، ومن رواقه البارد إلى وهج وضجيج الشارع.

مسجد الناقة، الذي نزوره بعد ذلك، له أسطورته الخاصة. تقول الرواية إن جمل عمربن الخطاب، والد إحدى زوجات النبي محمد وفاتح أرض طرابلس التي تعرضت للغزو عدة مرات، توقف هنا عند قدومه في عام 700، وقد بُني المسجد تخليداً لهذه الواقعة. يُعد هذا أقدم مسجد في طرابلس، ويختلف تماماً عن جامع قرجي - فهو بسيط جداً، يضم ستة وثلاثين عموداً، والعمود المركزي كورنثي جميل. الأقواس على الطراز الروماني، وهناك خمسة مداخل. للفناء مساحة جميلة حيث يصلي المصلون ليلاً خلال الصيف، وفي الوسط تبرز نخلتان كبيرتان بشكل بارز أمام القباب البيضاء، بينما المئذنة عبارة عن برج مربع. ينتمي المسجد إلى المذهب المالكي، مما يسمح باستخدام ماء قد لمسه شخص آخر للوضوء، ويتدفق الماء هنا من صنبور واحد إلى مصرف صغير يملأ سلسلة من الأحواض المحفورة.

الجامع الكبير للقرمانلي، الذي نصل إليه عبر مدخل من سوق الربع، هو الأكبر في طرابلس. وعلى الرغم من أنه أقل زخرفة من جامع قرجي، إلا أنه يجذبنا أكثر بجلاله وروعة أجوائه. المسجد واسع ووقور، ويمتاز بهدوء أرستقراطي يتناسب مع مكانته كمعبد لسلالة القرمانلي. بُني على يد أحمد باشا القرمانلي عام 1726. أبوابه مصنوعة من خشب داكن منحوت، وأعمدته الستة عشر من الرخام، والمنبر من الرخام الملون، مستذكراً الطراز الفلورنسي. والمحراب رائع جداً، به عمودان مضلّعان، أحدهما أسود والآخر أبيض، أمام كل منهما شمعدان برونزي كبير. وفي الرواق أشار دليلنا إلى الأماكن التي كانت تجلس فيها النساء التركيات، لكن الحواجز التي كانت تحجبهن أزيلت. وداخل المسجد يقع قبر المؤسس،

بينما في الخارج، نجد قبو كبير مفتوح ومسور، وتوجد قبور علي باشا ابنه وكثيرين آخرين.

اجتمع حشد مهتم حولنا ونحن نقف عند المدخل نطل على القبور، فمن النادر هنا رؤية امرأة أوروبية في مسجد، على عكس القيروان في تونس، حيث يُعد ذلك أمراً شائعاً.

في طريق العودة إلى المنزل نمر بمسجد درغوث، نسبة إلى جنرال مشهور في القرن السادس عشر. لا يزال اسمه معروفاً في طرابلس، التي غزاها وقهرها للسلطان ضد الإسبان. وتوفي في عام 1564 في مالطا أثناء القتال ضد فرسان مالطا، ودُفن في المسجد الذي يحمل اسمه.

تنقسم مساجد طرابلس إلى فئتين: «جامع» وهو صغير، و«مسجد» وهو كبير. الأولى لا تحتوي عادة على إمام أو منبر، وتنتمي إليها الغالبية العظمى. ومهما كان المسجد كبيراً أو صغيراً، بسيطاً أو مزخرفاً، فإنه يظل المركز والأساس ومفتاح حياة المسلم، الذي تدور حوله جميع أنشطته الدينية والاجتماعية.



صورة داخلية لمسجد الناقة



الجنرال غاريوني، حاكم طرابلس الغرب

الفصل الرابع: مقر الحكم

نزور مقر الحكم للقاء الحاكم، واستعراض القلعة، وحضور استعراض للقوات في عيد ميلاد الملك، واستقبال دوق أبروتسي للشيوخ العرب.

طرابلس الغرب لا تزال تحت الإدارة العسكرية، وقد أبلغنا الحاكم، الجنرال غاريوني، أنه سيمنحنا مقابلة. وبما أن الوصول إليه ليس سهلاً على الإطلاق، فإننا سعداء جداً بمنحنا هذا الشرف. اليوم حار للغاية، وجدران القلعة القديمة ذات اللون الوردي تتوهج تحت أشعة الشمس بينما نعبر شارع العزيزية صعوداً على المنحدر الطويل المؤدي إلى المدخل.

يستقبلنا الجنرال بلطف وسحر كبيرين، يجمعان بين الصراحة وبساطة الجندي، فهو بالفعل جندي في جوهره. وعمله الإداري ومهامه العسكرية يستحوذان عليه بالكامل، وليس لديه اهتمام بالمناسبات الاجتماعية أو التفاهات. وخلال حديثنا تتضح هذه الصفة بشكل جلي. نذكر له مدى إعجابنا بالجانب الفني في طرابلس، فيشير ملاحظاً بواقعية: «بالنسبة لنا أهم شيء الآن هو الميناء.»

عندما أشرح له سبب زيارتي إلى طرابلس، يظهر استعداده لتقديم كل التسهيلات، ويتصل بسكرتيره، ويضعني بين يديه للحصول على كل المعلومات التي قد أحتاجها. ثم يدعونا للخروج إلى الشرفة خارج غرفته مباشرةً لنرى المنظر البديع للميناء والبحر الأبيض المتوسط، وإلى اليمين شرقاً نحو مقابر القرمانلي والواحة. ويشرح لنا أن المدينة الجديدة لطرابلس ستُبنى في هذا الاتجاه، مع الحفاظ على الجزء القديم دون أي تعديل. الموقع رائع، ومناخه متميز، مما سيجعل طرابلس لاحقاً منافساً قوياً لتونس والجزائر كمنتجع شتوي.

أثناء وداعنا للحاكم، نتحدث عن الصداقة والتعاطف القديمين بين إنجلترا وإيطاليا، والتي تتجاوز مجرد شعور سطحي، فليدُم هذا الود طويلاً!

القلعة هي أكثر المباني إثارة للاهتمام في طرابلس، فهي تمثل جميع مراحل الوجود المتنوعة التي مرت بها أرض طرابلس الغرب. يقول البعض إنها بنيت على يد الإسبان في القرن السادس عشر، لكن هناك آثار بناء أقدم بكثير تشير إلى مراحل تاريخية سابقة. والبناء في هذا الخليط من المباني - العربية، الفرنسية، والإسبانية - ساهم كل منها بجزء مختلف. أضيفت العديد من الإضافات على مر الزمن خلال حكم القرمانلي، كلما احتاج أي من أفراد العائلة المتعددة إلى شقق جديدة. وبما أن أي فرد من العائلة المالكة، حتى أحفاد الباشا، لم يعش خارج أسوار القلعة، فقد اتخذت القلعة مع مرور الوقت شكل بلدة صغيرة بُنيت دون ترتيب أو مراعاة للأسلوب. الغرف كثيرة وكبيرة، لكنها الآن حديثة بالكامل ومخصصة لاستخدام الضباط الإيطاليين. قام الأتراك بجرد المكان عند الاحتلال الإيطالي، ولكن في غرفة الاستقبال الكبيرة توجد مرآة قديمة رائعة، وهي الشيء الوحيد ذي القيمة الذي تركوه.

الجدار الخارجي للقلعة مرتفع وذو سمك كبير، ففي العصور الوسطى كانت القلعة حصناً منيعاً ضد الهجمات البرية والبحرية.

غرفة الأرشيف مشهد استثنائي. عند دخولنا استقبلتنا رائحة العصور القديمة العفنة، والتي فسرت بوجود أرضية مغطاة حرفياً بالوثائق والمخطوطات. كانت هناك كومة هائلة من الأوراق على جانب واحد من الغرفة تصل إلى السقف، بينما الأكياس الممتلئة مكدسة بالقرب من الباب جاهزة للنقل والحرق. كانت الغرفة مليئة بالصناديق المكدسة، تحوي وثائق تركية وعربية من كل نوع، تراكمت عبر قرون، ويتم فرزها حالياً من قبل الإيطاليين. يبدو العمل مستمراً مدى الحياة، لكنه يتقدم بسرعة وبشكل منهجي.

في الأسفل، على مستوى الأرض، توجد السجون: اثنان للرجال وواحد للنساء. والأخير يضم عددًا قليلاً من السجينات، عربيات وبدويات ويهوديات. السجانة زنجية قوية، قادرة على إدارة اثنتي عشرة سجينة متمردة، رغم أن القوة لم تبدُ ضرورية، فالجميع بدا مرتاحاً للغاية. ويشبه السجن منزلاً عربياً كبيراً، حيث تفتح العديد من الغرف على فناء ضخم. تقوم النساء بأعمال خفيفة، وأساساً بالحفاظ على نظافتهن ونظافة السجن.

رأينا أحد سجون الرجال، الذي يضم حوالي مائتي عربي. كان على نفس نمط سجن النساء، وكان الفناء ممتلئاً بالرجال المتجمهرين عند الباب للاطلاع علينا، مهتمين جداً بزيارتنا. جميعهم كانوا ينتظرون المحاكمة بتهم جنح بسيطة، ولم يمكث أي منهم هناك فترة طويلة.

بعد مغادرة متاهة الممرات والأبواب الغامضة والمهيبة في غسق المساء، نصعد المنحدرات الحادة. من الأسوار وصعدنا إلى أعلى شرفة في القلعة، حيث تطل على منظر رائع للبحر الأبيض المتوسط. كانت عاصفة قوية تهب، بينما كانت أمواج البحر ترتطم وتتصاعد في غيوم كبيرة من الرذاذ فوق أعمال الميناء الجديدة، التي تمتد في خط طويل إلى اليسار. إن مشهد هذا الخط يجعل المرء يدرك أكثر من أي شيء آخر أن طرابلس قد أنهت أخيراً وقت محنتها، ودخلت حياة جديدة.

لقد عدنا للتو من استعراض القوات الذي أُقيم تكريماً لعيد ميلاد ملك إيطاليا. طبعاً، تم إرسال العديد من القوات إلى إيطاليا، لذا كان الاستعراض على نطاق أصغر مما جرى في عام [1912]، ولكن لا يزال هناك حوالي عشرة آلاف جندي متمركزين في طرابلس والمناطق المحيطة بها.

غادرنا مبكراً لنأخذ أماكننا على المنصة المقابلة لمبنى الحكومة، في شارع العزيزية، مروراً في طريقنا بحشود كبيرة من «الناس»، وهي حشود دولية للغاية—إيطاليون، مالطيون، يهود، عرب، بربر، زنوج، بكل ألوان



القلعة

قوس قزح. كان يحافظ على النظام صفان من الكارابينييري والجنود الوطنيين. كانت الشرفات والنوافذ على جانبي الشارع مليئة بالناس؛ وزيّنت الزخارف والأعلام الملونة باللون الأحمر والأبيض والأخضر الإيطالي كل مكان، مما أضفى على المدينة مظهراً بهيجاً، وتحت وهج الشمس الكامل، التي كانت حارة بشكل غير مريح حتى في هذه الساعة المبكرة (8:30 صباحاً).

مقابلنا تماماً، على شرفة مبنى الحكومة، تجمع بعض أعضاء حاشية الحكومة، ومختلف القناصل الأجانب مع عائلاتهم. في تمام الساعة التاسعة صباحًا، وصل الحاكم، برفقة طاقمه وضباط آخرين، ومعه حسونة باشا على يمينه، واتخذ موقعه بالقرب من مبنى الحكومة. شكّل حرس الشرف من الشيوخ المحليين خلفية خلابة للغاية بجلابيبهم البيضاء وعباءاتهم القرمزية الطويلة الفضفاضة.

بدأ الاستعراض بمرور أفواج المشاة، تلتها مفرزة من البحارة، الذين كانوا دائماً يتمتعون بشعبية، إذا حكمنا من خلال استقبال الحشد لهم. تبعهم رجال الدرك الأنيقون والمزيد من المشاة. ثم بعيداً في الشارع، سمعنا همهمة تصفيق، تزداد في الحجم كلما اقتربت منا، حتى تمكنا من رؤية البرساغلييري المشهورين من أماكننا. مروا وهم يهرولون، وريشهم يتمايل في الريح، بينما تحولت الهمهمة إلى هدير من التصفيق، انضممنا إليه بقرع الأيدي الحار وهتافات «عاش البرساغلييري!».

كانت إحدى التفاصيل المثيرة للاهتمام في الاستعراض هي سرب من الشاحنات الآلية، التي مرت أربعاً جنبًا إلى جنب. لقد أثبتت هذه الشاحنات قيمة لا تُقدر بثمن في أعمال النقل فوق الرمال الثقيلة. جاءت المدفعية الميدانية وبطاريات الجبال الخفيفة بعد ذلك، تلتها فرقة الجمال، حاملة أقسامًا من المدافع الميدانية. العساكر، جنود سود رائعون من إريتريا، المستعمرة الإيطالية في البحر الأحمر، جميعهم يرتدون الزي الأبيض مع طرابيشهم الطويلة الغريبة، مرّوا بحركة متناسقة رائعة. إنهم عدّاؤون لا

يكلون، قادرون على مواكبة سلاح الفرسان لساعات طويلة.

كان عرض القوات المحلية مثيرًا للاهتمام بشكل خاص، حيث ارتدى الطرابلسيون الزي الأبيض مع أحزمة حمراء، ورحب بهم الحشد بحرارة، وبدوا كمجموعة من الرجال المجهزين تجهيزًا جيدًا للغاية. يضع الإيطاليون أسس جيش محلي هنا، وسيكون له رصيد ثمين في المستقبل.

تميز ختام الاستعراض بمرور مجموعة من فيلق العرب على الخيول، في استعراض تكريمي لملكهم، ملك إيطاليا. بعد ذلك، دخل الحاكم برفقة حسونة باشا إلى مبنى الحكومة، بينما تلاشت الحشود الضخمة في مجموعات ملونة زاهية، متجهة إلى المقاهي لمناقشة تفاصيل مشهد الصباح باهتمام شديد.

أود هنا أن أذكر بضع كلمات عن زيارة سمو دوق أبروتسي إلى طرابلس. لعدة أيام كانت المدينة تنتظر وصوله بفارغ الصبر، لكن العاصفة المروعة التي استمرت أسبوعًا حالت دون اقتراب أي سفينة. وفي مساء الثاني عشر من ديسمبر، ظهرت الطرادة «ريجينا إيلينا» تحت قيادته، ورست على مسافة من حاجز الأمواج الجديد للميناء.

في صباح اليوم التالي، أقام الدوق استقبالًا لجميع أعيان طرابلس، وكان من المثير للاهتمام رؤية وفد من شيوخ العرب، الذين رأوا لأول مرة عضوًا من البيت الملكي الإيطالي. وتعابير وجوههم أظهرت بوضوح مدى اهتمامهم وفضولهم. ونحن الإنجليز ندرك جيدًا أهمية مثل هذه الزيارات في التأثير على العقلية المحلية، ويمكننا بسهولة فهم أن هذا الحدث يهدف إلى رفع وتعزيز الهيبة الإيطالية في طرابلس.

بعد الظهر حضرنا رقصة شاي أقامها دوق أبروتسي لبعض الوقت. كان الشيوخ متفرجين مهتمين جدًا لأول مرة في حياتهم يتواجدون بمناسبات المجتمع الأوروبي. وكان من الممتع جدًا مشاهدة وجوههم، وهم يقفون في صف طويل، صامتين ومنتبهين، يراقبون الراقصين. مستمتعين بالمشهد، لكن، كشرقيين أصيلين، لم يظهروا أي علامة على الدهشة أو

التسلية سوى وميض ابتسامة عابرة هنا وهناك.
فالشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا أبدًا.



استعراض القوات.

الفصل الخامس: عائلة القرمانلي

مقابلة في البلدية مع حسونة باشا، رئيس بلدية طرابلس - مؤسس السلالة، أحمد القرمانلي - ابنه محمد باشا - مقتل علي بك على يد أخيه يوسف - معاهدة نابليون بونابرت مع يوسف - دسيسة يوسف ضد القنصل الفرنسي - إهانته من قبل الأسطول الفرنسي - عُزل عام 1835 - ابنه علي نُفي إلى القسطنطينية - عم حسونة باشا.

بفضول واهتمام كبيرنذهب اليوم إلى بلدية طرابلس، أوقاعة المدينة، للقاء حسونة باشا، رئيس بلدية طرابلس، وهو السليل المباشر لعائلة القرمانلي. هذه السلالة التي كان تاريخها مضطربًا ومليئًا بالرومانسية، حكمت طرابلس الغرب بشكل مستقل، وترك هذا الحكم أثره في هذه الأرض المليئة بالتغيرات والتقلبات.

نُقدم إلى رجل وقور، مظهره العام يعكس القوة، وملامحه الصارمة، وعيناه الثاقبتان المليئتان بالنار الكامنة تخفيان عمره، فهو يزيد عن السبعين. يستقبلنا بأقصى درجات الود واللطف، ويطلب منا الجلوس. الغرفة نفسها ليست مثيرة للاهتمام بشكل خاص، تشبه أي غرفة عمل أخرى، إلا أن الطاولة الكبيرة أمام رئيس البلدية مغطاة بقماش قرمزي، والسجادة القرمزية والبيضاء المعلقة على الحائط خلف كرسيه تضيف لمسة شرقية على المكتب الأوروبي بالكامل.

يجلس حول الغرفة العديد من الشيوخ والعرب من العائلات المرموقة، جاءوا لمناقشة أعمالهم. نتبادل المجاملات أثناء تناول القهوة التركية. كل من في الغرفة مهتمون جدًا بمحادثتنا وبوجودنا، فليس من المعتاد أن تزور نساء إنجليزيات هذه الغرفة.

يحدثنا حسونة باشا عن عائلته، التي تتواجد الآن في الريف. لديه فتاة صغيرة تبلغ حوالي خمس سنوات، وأخرى رضيعة في ذراعيه، وهما

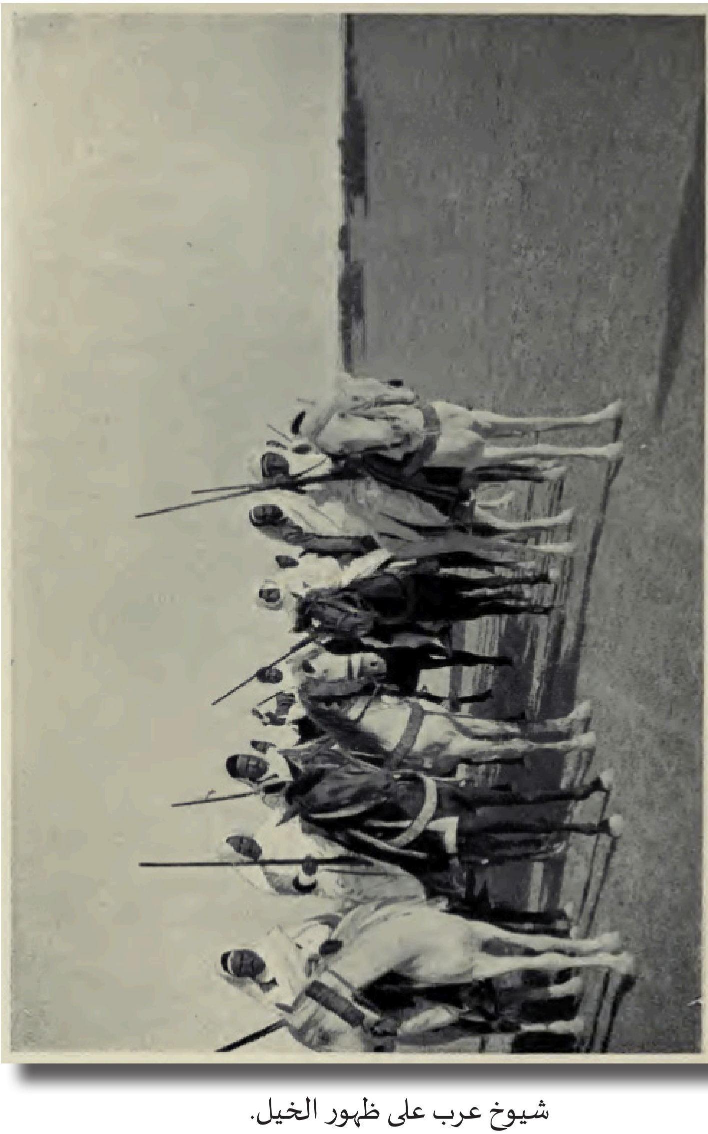
ابنتا زوجته الحالية. أبناؤه وبناته من زوجته الأولى جميعهم كبار في السن. يمكننا ملاحظة أننا نُقاطع أعمال اليوم بوضوح، لكن حسونة باشا مهذب للغاية، فلا يظهر ذلك على وجهه.

مع امتلاء الغرفة بالعرب الذين ينتظرون الحديث معه، حان الوقت لنا، الزوار التافهون، لإفساح المجال للعمل. بعد تبادل العديد من المجاملات والمصافحات نغادر. ويتركنا هذا اللقاء بانطباع مثير للاهتمام عن السليل الوقور للقرمانلي، فملامحه الواضحة تبرز بحدة على خلفية قرمزية، بينما يسقط الضوء من النافذة الزجاجية الملونة على وجهه وهو يودعنا بود. ولكنه كان وداعاً مهيباً. وبينما كنا نخرج، صافحنا واحداً أو اثنين من المتفرجين المهتمين، وغادرنا وسط وابل من عبارات «بسلامة» (بمعنى: «صحة لك»).

بدأ حكم البايات المستقلين من آل القرمانلي على طرابلس الغرب عام [1724]، عندما استولى أحمد القرمانلي، وهو زعيم عربي وقائد فوج فرسان، على البلاد بعد مذبحة نفذها في الحامية التركية. كان شخصاً ذكياً، فأرسل هدايا رائعة إلى سلطان تركيا آنذاك، أحمد الثالث. وبذلك، لم يحصل فقط على عفو مجاني عن أفعاله السيئة، بل أيضاً على الاعتراف بحكمه على طرابلس الغرب.

لكن العلاقات بين بلاده والقوى الأوروبية كانت متوترة بشكل واضح. فتماماً كما كان الحال في عهد الأتراك الذين سبقوه، تسببت تعديات جحافل القراصنة الذين اجتاحوا البحر الأبيض المتوسط في احتكاك مستمر بين القرمانلي والقوى التي عانت على أيدي هؤلاء القراصنة.

في عام [1728] اضطر أحمد القرمانلي إلى توقيع معاهدة مع فرنسا، ما أدى إلى تحسن الأمور قليلاً. وخلفه ابنه محمد باشا، الذي زادت في عهده جرأة القراصنة أكثر من أي وقت مضى تحت التسامح الخفي للباشا، إن لم يكن تشجيعه الصريح. ويبدو أن السفن الفرنسية هي التي عانت أكثر من غيرها، حتى قام أسطول فرنسي بقصف طرابلس أخيراً.



شيوخ عرب على ظهور الخيل.

أسفر قصف الأسطول الفرنسي عن تحسن مؤقت للأوضاع، لكن يبدو أن آل القرمانلي كانوا عاجزين عن كبح جماح رعاياهم القراصنة لفترة طويلة.

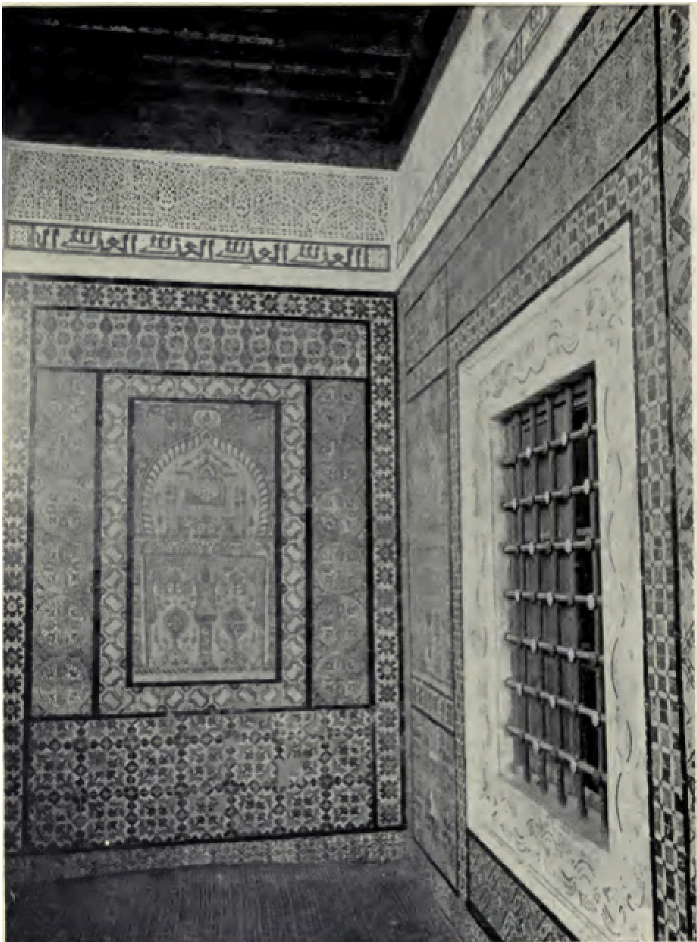
خليفة محمد باشا كان ابنه علي باشا، الذي أنجب ثلاثة أبناء: علي وأحمد ويوسف، وهنا تبدأ مرحلة نهاية حكم القرمانلي. كان يوسف، الابن الأصغر، يشعر بغيرة شديدة من أخيه علي بك، الرجل النبيل، بينما امتاز هو نفسه بجاذبية ظاهرية ودسائس بالفطرة. ونشب احتكاك مستمر بين الأخوين، حيث كان يوسف يحاول استفزاز علي للدخول في صراع مفتوح، حتى قرر في نهاية المطاف إزالة هذا العقبة من طريق طموحه ليصبح باشا بعد وفاة والده.

ربما تكون هذه واحدة من أكثر الأحداث مأساوية في تاريخ الخلافات العائلية، حيث تتضح بطريقة رائعة جانبي الشخصية العربية المتناقضين بين الأخوين: أحدهما نبيل وصريح، غير قادر على تصديق سوء نية أخيه، والآخر مليء بالخيانة المظلمة.

معلناً نيته في التصالح، وصل يوسف إلى القلعة في أغسطس 1790، وذهب إلى شقق والدته معلناً رغبته في لقاء علي بك غير مسلح. وافق علي بك على ذلك، بعد أن توسلت إليه زوجته أن يحمل سيفه. والأم، سعيدة بإمكانية المصالحة، حاولت التحقق من نوايا يوسف، لكنه أخرج خدمه المسدسات بدل القرآن، وأطلق النار على أخيه الجالس بجانب والدته. أصيبت الأم في يدها محاولة حماية ابنها، بينما أصابت الرصاصة علي بجنب، فسارع إلى مسدس سيفه لكن قبل أن يرد، أُطلقت عليه رصاصة ثانية، فسقط على الأرض. ثم أشار يوسف إلى خدمه قائلاً: «هذا هو الباي! اقتلوه!» فنفذوا الأمر وأجهزوا عليه.[1]

بعد هذه الحادثة، أصبح أحمد بايًا مكان أخيه علي، بينما بدأ يوسف في التخطيط لإزالة هذه العقبة أيضًا. اعتزل إلى الريف وجمع أتباعه، وظل

1-تفاصيل الاغتيال مأخوذة من رسائل سيدة إنجليزية، زوجة شقيق القنصل البريطاني، السيد تولي، تعود للفترة من 1783 إلى 1793.



زخرفة في جامع قرجي.

لمدة عامين يضايق والده البائس علي باشا وأحمد باي، محاصرًا إياهم ومقطعًا الإمدادات عنهم. وعندما كان على وشك دخول طرابلس، وصل قرصان تركي مع عدة سفن، استولى على المدينة فجأة. وانضم الباشا وأحمد إلى قوات يوسف لمواجهة العدو المشترك، ولجأ الثلاثة إلى حمودة باي تونس، الذي انحاز إليهم وأرسل جيشًا لطرد الأتراك وإعادة القرمانلي إلى السلطة. بعد وفاة علي باشا، أجبر يوسف أخاه أحمد على التنازل عن حقه في الحكم، فحقق أخيراً حلمه بأن يصبح باشا خلفاً لوالده. غير أن حكمه كان بعيداً كل البعد عن أن يكون مريحاً أو سهلاً؛ فعلى الرغم من وصوله إلى قمة طموحه، فإن طبيعته القلقة والمولعة بالمكائد لم تسمح له بالرضا بحياة هادئة مستقرة.

أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر، كان يوسف يساند الفرنسيين سراً، رغم أنه كان من المفترض أن يكون صديقاً للإنجليز. وفي عام 1801، أبرم بونابرت معه معاهدة خاصة. لكن بعد انتهاء الحروب النابليونية، عاد اهتمام القوى الأوروبية ليتوجه إلى غارات القراصنة المستمرة التي عاثت فساداً على سواحل أوروبا، فاستُدعي يوسف مجدداً للمساءلة. حدث ذلك عام 1819، غير أن يوسف لم يتوقف؛ فبعد ست سنوات وجد نفسه في نزاع مع ملك سردينيا، حيث دُمِّر أسطوله وأُرغم هو شخصياً على توقيع معاهدة.

لكن المعاهدات عند يوسف لم تكن سوى أوراق لا قيمة لها. فما إن مضى عام حتى تدخلت فرنسا وأجبرته على دفع تعويضات للبابا عن الأضرار التي ألحقها القراصنة بالسفن البابوية. أثار ذلك غضبه، فدبّر مؤامرة ضد القنصل الفرنسي في طرابلس. وعندما قُتل رجل إنجليزي يُدعى الرائد لينغ على أيدي الأهالي في الداخل، حاول يوسف إلصاق التهمة بالقنصل الفرنسي، إلا أن التحقيق المشترك بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية كشف زيف ادعاءاته. وبعد فترة قصيرة من احتلال الجزائر، أرسلت فرنسا أسطولاً إلى طرابلس، فاضطر يوسف مرة أخرى إلى إذلال

نفسه، مقدماً تعهداً بعدم احتجاز المسيحيين كعبيد في طرابلس الغرب، وبوقف القرصنة نهائياً.

وقد أثارت هذه الإهانات المتكررة غضب رعاياه، فاندلعت ثورة ضده عام 1831، حين أعلن عبد السليب، قائد أولاد شنان، العصيان وسيطر على فزان. أرسل يوسف ابنيه الأصغر، إبراهيم وحمودة، لإخماد الثورة، لكنهما عادا مهزومين. وفي تلك اللحظة الحرجة، طالبت بريطانيا بمبلغ ضخم كتعويض عن الأضرار التي ألحقها القراصنة بسفنها. وإذ عجز يوسف عن الدفع، فرض ضريبة على سكان المنشية الذين كانوا منذ القدم معفيين من الضرائب. وكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير؛ فثار الشعب بأكمله عليه وخلعه من العرش.

خلفه ابنه الأكبر، علي بك، لكن الحرب الأهلية استمرت بسبب مطالبة أحد أفراد العائلة الآخرين، محمد القرمانلي، بالعرش. واستغل الأتراك هذا ذريعة للتدخل، وفي عام 1835 أرسلوا أسطولاً بقيادة نجيب باشا إلى طرابلس. صعد علي بك على متن سفينة القائد التركي للتشاور معه، لكنه لم يعد؛ إذ أبلغه الأتراك أنه عُزل من الحكم ونُفي إلى القسطنطينية. أما أخواه، إبراهيم وحمودة، فقد بقيا في طرابلس تحت الحكم التركي، بعدما استولى نجيب باشا على طرابلس الغرب باسم السلطان.

انقرض نسل إبراهيم، أما حسونة باشا، رئيس بلدية طرابلس الحالي، فهو ابن حمودة وابن شقيق علي بك، آخر باشا من أسرة القرمانلي حكم طرابلس.



آثاررومانية في الاصابعة

الفصل السادس: الآثار الرومانية

قوس ماركوس أوريليوس - نقش على العتبة - القوس الشمالي - القوس الشرقي - سقف القبة - المقابر الرومانية بالقرب من حصن الميناء- الاكتشافات الحديثة - المتحف.

يُدهش المرء، وصفحة مثيرة للاهتمام في تاريخ طرابلس أن الإيطاليين قد عادوا لحيازة هذا البلد، الذي ترك فيه الرومان العديد من الآثار الرائعة. يعود تاريخها إلى فترة الاحتلال التي بدأت عام 106 قبل الميلاد، بعد الحروب البونيقية، حيث ضُمت طرابلس إليهم حتى القرن الخامس. وقد تم اكتشاف هذه الآثار في أجزاء مختلفة من البلاد، ومؤخراً تم الكشف عن بعض أرضيات الفسيفساء الجميلة في زليتن، وهي ليست بعيدة عن الخمس، على بعد حوالي ستين ميلاً شرق طرابلس.

وفي مدينة طرابلس نفسها، يوجد أولاً وقبل كل شيء قوس الرخام الشهير لماركوس أوريليوس (الذي سبق ذكره في الفصل الأول)، والذي قضينا في زيارته صباحاً، مثيراً للاهتمام للغاية مع رئيس قسم الأبحاث.

في الوقت الحالي، توجد دعامات وسقالات حول القوس، حتى ينتهي العمل في تنظيفه وترميمه—وهذا سيستغرق حوالي شهرين. بعد ذلك، سيتم هدم المنازل الصغيرة القذرة التي تحيط به، وسيتم تنظيف المساحة المحيطة به بالكامل، بحيث يظهر بكل عظمته، متحرراً من هذه البيئة القذرة.

بُني القوس عام 163 ميلاديًا على يد كايوس كالبورنيوس سيلسوس، وهو مواطن ثري من طرابلس، التي كانت تُعرف آنذاك باسم أويا (Oea). بُني لتخليد ذكرى انتصار ماركوس أوريليوس ولوسيوس فيروس على قبائل آسيا الصغرى، وقد كرسه بروقنصل روماني. وكان المكان الذي يقف فيه القوس سابقًا نقطة التقاء وتقاطع شارعين رئيسيين: زنقة الفرنسيس،

التي كانت آنذاك طريقًا مستقيمًا طويلاً يستمر إلى باب الحرير، والطريق الآخر الذي كان يؤدي من البحر إلى حارة الإبراي (الحي اليهودي) ومن ثم إلى خارج المدينة.

له أربع واجهات، تشبه في هذا الصدد قوس يانوس في روما. يوجد مثالان آخران من هذا النوع ذي الأربع واجهات، أحدهما في الخمس، والآخر (تكريماً لكاراكلا) في تبسة، في الجزائر.

الواجهة الشمالية هي الأفضل حفظاً، وربما يرجع ذلك إلى تعرضها الأقل لتأثير الشمس والمطر. في الجزء العلوي من الواجهة توجد (أويا (طرابلس)، طرابلس (ثلاث مدن)، لبراتو (غرب طرابلس)، التقسيم الروماني، لبتيس ماجنا (لبدة- شرق طرابلس)).

على الواجهة الشمالية (الأفضل حفظاً) نجد رأساً لغريفين، وإلى اليسار جذع تمثال يرتدي عباءة، ولكن رأسه مفقود، كما هو الحال مع كل تمثال تقريباً في القوس. في الأسفل توجد قيثارة وقوس وحزمة من السهام. وإلى اليسار يوجد تمثال لـ مينيرفا مع أبي الهول، الذي بقيت أجنحته وجسمه سليمة. تم اكتشاف الغريفين المذكورين في غرفة بُنيت على الجزء العلوي من القوس، وكانت تُستخدم كحاجز يُحفظ خلفه الفحم.

في الأسفل، على كل جانب، يوجد النصف السفلي لجندي روماني يرتدي سترة قصيرة، وقد دُمّر الجزء العلوي. على الجانب الأيسر، أسفل هذا التمثال، توجد مجموعة مثيرة للاهتمام ومحفوظة جيدًا تمثل المقاطعة المحتلة. ويقف بربري ملتحٍ ويداه متقاطعتان ومقيدتان أمامه، وعباءته مطرزة بالفرو لإظهار مكانته الملكية. وتُمثَّل زوجته وطفله جالسين أمامه، مع عباءة ملقاة على رأسيهما للدلالة على الحزن. الأعمدة الداعمة منحوتة بشكل رائع، بينما على اليسار تظهر شجرة الحياة، مع عناقيد من الفاكهة والأوراق.

معظم النقش على العتبة مقروء، وهو في أربعة أسطر، والأجزاء

المفقودة هي تلك الموضوعة بين قوسين:

للإمبراطور قيصر ماركوس أوريليوس أنطونينوس أغسطس (و) للإمبراطور قيصر لوسيوس أوريليوس فيروس أرمينياكوس أغسطس.

سيرجيوس كورنيليوس سالفيدينوس أورفيتوس بروكونسول مع أوتيديوس مارسيلوس مندوبه كرسوا له.

كايوس كالبورنيوس سيلسوس، أمين صندوق الأشغال العامة، ومونيراريوس، (اثنان) من كبار القضاة، وقسيس دائم.

بنى القوس بماله الخاص على أرض عامة وبأساسات من الرخام الصلب.

القوس الشرقي ليس محفوظاً بشكل جيد، لكن تمثالي النصر أكثر أو أقل وضوحاً، خاصة الذي على اليسار. في الأسفل يوجد مكانان، واحد على كل جانب، ربما كانا يحملان تماثيل، بينما فوقهما توجد ميداليات، مكسورة ومدمرة إلى حد كبير، يُرجح أنها للإمبراطور والبروقنصل. توجد بقايا عمود رائع على اليسار، تم الكشف عنه مؤخراً فقط، إذ كان مخفياً بواسطة المتاجر الصغيرة المبنية حول وداخل القوس.

سقف الكوة على اليمين رائع، ومحفوظ بشكل جيد بشكل مذهل، وكذلك قطعة جميلة من النحت فوقه مباشرة. كل الرخام يأتي من جزر الأرخبيل اليوناني، ويرجع الفضل في ذلك إلى جودته المقاومة بشكل خاص في بقاء الكثير من النحت الدقيق، على الرغم من المعاملة القاسية التي تعرض لها.

سقف القبة الداخلي مُثمّن الأضلاع، ويتكون من ألواح من الرخام، كل لوح منحوت ببعض الفاكهة أو الزهور. لسوء الحظ، تم تدمير النحت الجميل إلى حد ما بسبب حريق وقع قبل حوالي خمسة عشر أو عشرين عامًا في المتجر أو المقهى الذي كان مبنياً تحت القوس. توجد أربع قطع زاوية ثلاثية، واحدة منها فقط في حالة جيدة من الحفظ، تبرز بلونها الأبيض الناصع على خلفية السقف الأسود نوعاً ما. الجانبان الجنوبي والغربي،

اللذان يقابلان الشمالي والشرقي، متضرران بشدة، ولكن لا تزال هناك بقايا يمكن رؤيتها من الغرفتين، وكذلك من تمثال النصر والميداليات.

لا يسع المرء إلا أن يكون ممتناً للغاية لأن هذه القطعة الجميلة من روما القديمة قد صمدت أمام ضغوط القرون العديدة التي مرت خلالها طرابلس بأيدٍ لا حصر لها، لتعود أخيراً إلى حوزة أولئك الذين هم بالتأكيد الأجدر بحراسة مثل هذا الكنز.

في الآونة الأخيرة، في مايو ويونيو من عام [1912]، قام الإيطاليون باكتشافات مثيرة جداً للاهتمام لـ مقابر رومانية. ولحسن حظنا، تمكنا من زيارتها مع المرشد نفسه.

بالانعطاف إلى اليسار عبر بوابة حصن الميناء، الذي يواجه الميناء، نمر من الظل البارد إلى وهج الشمس المبهر. فالشمس تغرب منخفضة فوق البحر، وتحوله إلى نار ذهبية سائلة. وطريقنا يمتد على طول السكة الحديدية الجديدة التي تم بناؤها لتسهيل نقل الرمال والحجارة من قرقارش وزنزور لأعمال الميناء الجديدة في طرابلس. وإلى اليسار توجد الجدران العالية من الرمال والصخور التي تم شق الطريق من خلالها، وخلال هذا الحفر تم اكتشاف المقابر عند نقطة يكون فيها الصخر.

كان الجدار في تلك الجهة هو الأعلى، فارتقينا إلى اليمين عبر نتوء صخري صغير، لنجد أنفسنا على هضبة صخرية كانت فيما مضى على مستوى الشارع في عهد الرومان. وخلفنا ارتفع الجرف الحاد، وقد غمره الآن ضوء الغروب القرمزي، فيما راحت الشمس تهوي ككرة من نار نحو الأفق، والبحر البعيد عند أقدامنا يتراءى كسطح ناري ساكن، يلفه سكون الليل القادم ودفء ساعاته الأولى.

حولنا انتشرت المقابر المفتوحة. ونجد درجات قليلة، منحوتة بخشونة في الصخر، تنحدر إلى ممر قصير. هناك كان علينا أن ننحني أرضاً لنطل عبر فتحة صغيرة تؤدي إلى غرفة داخلية، لا تتجاوز مساحتها سبعة أقدام مربعة. لقد جُردت هذه الغرفة، مثل غيرها من القبور، من رفاتها

بعد قرون طويلة من السكون.

من هذا القبر، كما من قبور عديدة أخرى، استُخرجت مجموعة من المقتنيات المثيرة، أُودعت لاحقاً في متحف المدينة. عُثر على بقايا ثلاثة أو أربعة هياكل عظمية، إلى جانب عدد من الجرار التي احتوت على رماد جثث أُحرقت. هذه الجرار، أو المزهريات الزجاجية، بقيت في حالة شبه مثالية بفضل حفظها داخل أوانٍ خارجية من الرصاص.

أما الأواني الفخارية، والمزهريات الزجاجية ذات الألوان القزحية، وزجاجات العطور، والجواهر، وأوعية المياه والكؤوس، فقد جُمعت كلها ونُقلت لتُعرض في المتحف.

أحد القبور، على الجانب المقابل من القطع، يختلف إلى حد ما في بنائه عن الآخرين، حيث يضم صفاً من المنافذ التي كانت مُعدة لحفظ الجرار.

قبل بضعة أسابيع فقط، تم الكشف عن فسيفساء رومانية صغيرة أبعد قليلاً أسفل السكة الحديدية، باتجاه باب الجديد (البوابة الجديدة). وداخل هذه البوابة مباشرة، التي تؤدي إلى الحي اليهودي، وعلى الجانب الأيمن، وتشكل جزءاً من سور المدينة الحالي، توجد قطعة صغيرة من سور المدينة الروماني الأصلي الذي كان يحيط بالمدينة في تلك العصور الغابرة - وهي كتل حجرية كبيرة وصلبة صمدت أمام تآكل قرون عديدة.

المتحف، القريب من القلعة في شارع العزيزية، هو مبنى طويل ومنخفض ذو شرفة، كان يُستخدم كمركز حراسة لحراس القلعة في زمن الأتراك. لقد تم ترميمه وتنظيفه لاستقبال الآثار العديدة المثيرة للاهتمام التي تم اكتشافها في طرابلس الغرب.

يحتوي المتحف على العديد من التماثيل الجميلة، ولا سيما تمثال النصر، وتمثال باخوس مع ساتير. وهناك أيضاً تمثال صغير لـ فينوس اكتُشف في لبدة (لبدة الكبرى)، بالقرب من الخمس، وفي الحديقة الإمبراطورية للحاكم التركي. ويُذكر أن الرجل المسكين صُدم بحالتها

«العارية»، فدفنها. عند بناء الثكنات الجديدة في المكان الذي كانت فيه الحديقة، عثر الجنود الإيطاليون على التمثال، وهو في حالة جيدة من الحفظ. وهناك تمثال آخر رائع على نطاق واسع جداً يمثل روما على الأرجح، إذا حكمنا من خلال التونيك القصير و»الكاليجي» (حذاء الجنود الرومان).

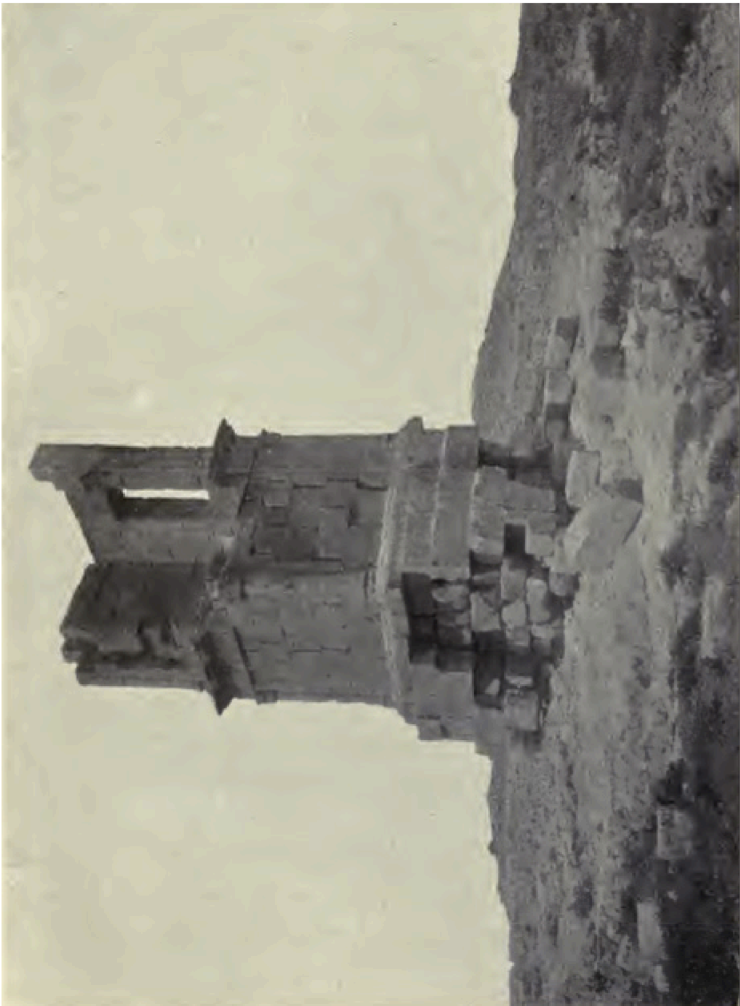
في علب زجاجية، توجد الآثار التي عُثر عليها في المقابر المذكورة سابقاً. وفي العديد من المزهريات أو الأواني الزجاجية المستخدمة للعطور والجواهر، ولا يزال يمكن رؤية سائل داكن اللون قليلاً.

وهناك آثار من عصور مختلفة، أول أثر من العصر المسيحي تم اكتشافه كان فوق حصن تركي، وهو حصن المنارة بالقرب من باب الجديد. إنه كتلة كبيرة من الحجر ربما شكلت جزءاً من عتبة، منحوت في مقدمتها صليب وكلمات «Sanctus Deus» (قدوس الله).

وتُعرض أيضاً نافورة رخامية جميلة، مع مجموعة من الثعابين المتشابكة المنحوتة بدقة تدعم الوعاء. يُرجح أن هذه النافورة هي من عمل فلورنسي، ومن المرجح أنها جُلبت إلى البلاد من قبل القراصنة الذين اجتاحوا البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى.

هناك عدد قليل جداً من الآثار العربية، فالبلاد تحت حكمهم كانت دائماً فقيرة جداً، ولكن هناك نافورة مثمنة الأضلاع، محززة ومنحوتة بكتابات عربية، وهي مثيرة للاهتمام. وهناك أيضاً نصب تذكاري يوناني صغير، مُهدى لسكان قورينائية، وهو قربان نذري.

لا تزال العديد من صناديق الآثار من جميع أنحاء المقاطعات غير مفكوكة، حيث يتم جلب اكتشافات جديدة باستمرار. وعندما يكون كل شيء جاهزاً، سيكون المتحف ذا أهمية قصوى.



ضريح روماني بالقرب من يفرن

الفصل السابع: الوضع السياسي

المشكلة الدينية – التنظيم السياسي والإداري – إدارة العدل – الأراضي والممتلكات والاستعمار – التعليم العام – الجيش – الأوضاع الصحية – المدارس – المرصد.

في أثناء محادثة مع أحد كبار المسؤولين في طرابلس، تمكنت من جمع الكثير من المعلومات حول الوضع السياسي، وهو ما يستحق أن يُسرد، ولو فقط من زاوية التشابه الكبير بين الصعوبات التي يواجهها الإيطاليون في إدارة مستعمرتهم الجديدة وتلك التي نعرفها نحن في إدارة تبعياتنا الإسلامية.

أول ما تجب الإشارة إليه هو أن طرابلس الغرب لم تُلحق بمملكة إيطاليا، وإنما وضعت تحت سلطتها فحسب. وبذلك فإن سكانها ليسوا مواطنين إيطاليين، بل مجرد رعايا، كما أن القوانين الإيطالية لا تُطبق في المستعمرة إلا إذا صدر إعلان خاص بذلك. وهذه حقيقة يغفلها الكثيرون، حتى في داخل إيطاليا نفسها.

أما العقدة الأساسية التي تواجه الإدارة الإيطالية فهي مسألة الدين الإسلامي: فالمبالغة في مراعاة الاعتبارات الدينية تضعف سلطة الدولة الحاكمة وتقلص نفوذها السياسي، بينما تجاهلها كليًا من شأنه أن يثير استياءً عميقًا قد يتطور إلى تمرد كامن دائم. بلوغ التوازن الصحيح بين هذين الحدين ليس بالأمر اليسير، غير أن الحكومة الإيطالية وضعت لنفسها سياسة تسعى لأن تكون عادلة وحازمة في الوقت ذاته، جوهرها الاهتمام برفاهية السكان، وتشجيع الزراعة، وتنشيط التجارة والمبادلات الاقتصادية، وفتح طرق جديدة للاتصال. وقد عُهد بتنفيذ هذه السياسة إلى رجال أكفاء نزيهين هدفهم أن يبقوا على اتصال وثيق مع الأهالي. ومثل هذه السياسة، في حال تم تطبيقها كما ينبغي، لا يُنتظر أن تخفق في

إعطاء نتائج طيبة.

وعندما طلبت موجزًا عن التنظيم السياسي والإداري، تبيّن أن الأمر قد تعقد بعض الشيء بسبب الفوارق في مستوى التحضر؛ إذ أن المناطق الساحلية، وخاصة محيط طرابلس، كانت أكثر تقدمًا بكثير من الداخل حتى قبل الاحتلال الإيطالي.

وبالطريقة نفسها التي اتبعتها فرنسا في الجزائر وتونس، جرى تقسيم إقليم طرابلس الغرب إلى مناطق تخضع إحداها للسلطة المدنية والأخرى للسلطة العسكرية. ويكمن الفارق الجوهري بين المنطقتين في أن إدارة الثانية أُنيطت مباشرة بالمسؤولين العسكريين، ومنحت المحاكم العسكرية فيها صلاحيات أوسع، بينما تسري القوانين ذاتها في باقي النواحي بلا اختلاف.

تُعهد الإدارة المحلية للبلاد إلى مفوضي الملك، الذين يشرف عليهم المقيمون، ويُدار هؤلاء الأخيرون عبر القائمقامين المحليين الذين يعينهم الحاكم. وتعدد الأعراق في طرابلس الغرب استلزم ليس فقط اعتماد تشريع مزدوج، بل وإقامة سلسلة مزدوجة من الأجهزة القضائية لإدارة العدالة. بالنسبة للإيطاليين والأجانب من حضارات مشابهة، يمكن أن تكون الإدارة مطابقة تقريباً لنظام الوطن الأم. أما بالنسبة للمسلمين فكان من الضروري الإبقاء على قضاة دينيين يستمدون سلطتهم من الشريعة الإسلامية. تُترك للقضاة جميع الأمور التي يختلط فيها القانون بالدين، إضافةً لقضايا الميراث التي تتمتع بطابع ديني قوي، مع مراقبة قراراتهم من قبل المحكمة الإيطالية. ونُفذ نظام مماثل لليهود، وإن لم يحقق بالضرورة النتائج المرغوبة كما في الجزائر.

فيما يخص الاستعمار، كان من الضروري قبل أي خطوة تنظيم ملكية الأراضي لضمان إمكانية شراء أو استئجار الأراضي بأمان. أنشئت سجلات دقيقة لتسجيل جميع ممتلكات الأراضي، مستلهمة من النظام الذي طُبق في أستراليا ومن ثم اعتمد في مستعمرات أخرى. كما جرى

دراسة جزء كبير من البلاد بشكل منهجي، شاملةً نوعية التربة، وإمدادات المياه، والزراعة، والظروف المناخية، لضمان أن يبدأ الاستعمار على أسس سليمة.

أما التعليم العام، فسيكون حديثاً، مع التركيز على التعليم الفني والزراعي، مع مراعاة حساسية المسألة الدينية للسكان المسلمين. بالنسبة للقوات، فقد تقرر الاحتفاظ ببعض القوات الحضرية على المدى الطويل، مع تقليص تدريجي لحجمها، بحيث تقتصر تواجدها على بعض النقاط الساحلية. أما باقي المستعمرة، فستُشكل لها نوعان من القوات الخاصة: متطوعون إيطاليون وقوات محلية، وقد أُنشئت بالفعل عدة كتائب مشاة وأسراب فرسان، إلى جانب عدد جيد من الزابطية (الشرطة المحلية).

تخضع مؤسسات المستشفيات لإشراف لجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء: عربي واحد، هو حسونة باشا، وإيطاليان يشغلان مناصب حكومية. وتنقسم المدينة إلى عشرة أحياء؛ ستة منها داخل الأسوار وأربعة خارجها، تسكنها العرب بالكامل، بينما من بين الأحياء الستة الداخلية، أربعة يسكنها خليط من الأوروبيين والعرب، والاثنان الآخران يسكنهما اليهود بشكل شبه حصري. يبلغ إجمالي عدد السكان، باستثناء الحامية العسكرية، 72,130 نسمة، منهم 12,358 إيطاليًا و2,434 مقيمًا أجنبيًا.

وبناءً على سلطة مدير المستشفيات، يمكن القول إنه خلال عامين منذ نهاية الحرب، تحررت طرابلس الغرب عمليًا من الأمراض المستوطنة فيها. تم التعامل مع مرض التراخوما بعناية حثيثة، وقد تراجع انتشاره بشكل ملحوظ. كان المرض منتشرًا قبل عامين في الثكنات والمدارس وبين السكان الأصليين. كما استفاد مرض الزهري، المعدي والوراثي، المنتشر على نطاق واسع بين السكان، وخاصة في صورته الجلدية، من العلاجات الحديثة مثل الزئبق و»سالفارسان»، مما قلل من أضرارها بشكل كبير. وقد اختفت القروح المروعة الناتجة عن القذارة والإهمال بين العرب



اجتماع أو مجلس

تقريبًا، بفضل التحسينات الصحية، وتضاءل التهاب المعدة الحاد والمزمن إلى الحد الأدنى، نتيجة تحسين إمدادات المياه.

تم تأسيس مصحة تجريبية صغيرة لعلاج المصابين بالسل في موقع ممتاز خارج أسوار المدينة مباشرة، تتميز بنقاء الهواء وجودة الماء، ومن المؤكد أنها ستثبت مع مرور الوقت أنها نعمة للكثيرين.

زرت المدرسة التجارية الفنية في طرابلس، وهي مدرسة دولية أسسها الإيطاليون قبل خمسة وعشرين عامًا. قبل الاحتلال كان عدد الطلاب قليلاً، أما الآن فقد ازداد بشكل كبير. هذا العام تم افتتاح دورة كلاسيكية جديدة. توجد أيضًا مدارس حكومية ابتدائية للبنين والبنات، وروضة أطفال، ومدرسة مهنية للعرب تحت إشراف الحكومة لتعليم صناعة السجاد، بالإضافة إلى مدرسة فرنسيسكانية للبنين ومدرسة للأيتام للأطفال العرب.

يتولى مدير المدرسة الفنية أيضًا رئاسة المرصد الجوي، الذي تأسس قبل أكثر من عشرين عامًا، ويقع على شرفة المدرسة. كل صباح تُرسل برقية جوية إلى روما، حيث يتابع المرصد الرصد الجوي الروماني.

صعدنا درجًا ضيقًا إلى المرصد، حيث شاهدنا الأجهزة المختلفة لقياس الضغط الجوي ودرجة الحرارة، وقوة الرياح واتجاهها، وكذلك مقياس الرطوبة لقياس رطوبة الهواء. وأخبرني المدير ببعض الحقائق المثيرة للاهتمام عن مناخ البلاد، الذي، رغم تقلباته، يُعد صحيًا للغاية. يبلغ متوسط هطول الأمطار السنوي نحو 16.5 بوصة، تبلغ ذروته في ديسمبر. ويستمر موسم الأمطار عادةً من أكتوبر إلى فبراير، إلا أنه متقلب، فقد يبدأ أحيانًا مبكرًا وأحيانًا متأخرًا. في المتوسط، هناك حوالي 51 يومًا ممطرًا سنويًا.

لا تنخفض درجات الحرارة إلى ما دون الصفر أبدًا، ولا تتجاوز 43 درجة مئوية في أقصى الحالات. ورياح القبلي، أو الرياح الجنوبية، القادمة من الصحراء، تكون حارّة جدًا في الصيف، وباردة نسبيًا في الشتاء بسبب

مرورها فوق قمة الجبل قبل الوصول إلى الصحراء. وتصاحب هذه الرياح انخفاضات حادة في الضغط الجوي، مع انخفاض نسبي في الأمطار أو الرطوبة. وبشكل عام، تتشابه درجات الحرارة إلى حد كبير مع تلك الموجودة في جنوب صقلية والسواحل المجاورة للوطن الأم.

الفصل الثامن: التحسينات الحضرية

إدارة الأشغال العامة - المشاكل الرئيسية - إمدادات المياه - الصرف الصحي - الطرق - المباني - تحسينات المستشفيات - مخطط للمدينة الجديدة - الحدائق العامة - السكك الحديدية.

بفضل الإذن الكريم الذي منحته لي القيادة، تمكنت من الحصول على معلومات قيمة من إدارة الأشغال العامة. هذا يمكنني من إعطاء فكرة عن التطور الحالي والنمو المستقبلي للمدينة، والذي يُبشّر بأن يكون ذا أهمية كبيرة.

المشاكل الرئيسية التي واجهها الإيطاليون بعد الاحتلال كانت أربعة: أولاً وقبل كل شيء، الحصول على إمدادات كافية ونقية من مياه الشرب. ثانياً، لم تكن مسألة الصرف الصحي أقل أهمية. كما كان لا بد من إنشاء طرق جديدة وإصلاح الطرق القائمة، وإنشاء المباني اللازمة للتطور الجديد للمدينة.

تم التعامل مع المشكلة الأولى من قبل السلطات بأكبر قدر من الطاقة والسرعة. ونتيجة لـ عدم كفاية الخزان في بومليانة، والحالة المزرية التي ترك فيها الأتراك القنوات، انتشرت الحمى والأمراض بعد الاحتلال الإيطالي. ولمواجهة هذه الشرور، شرعت إدارة الأشغال العامة على الفور في تحسين حالة الينابيع والخزان، وزودت المدينة بقناة جديدة. وبما أن الإمداد من بومليانة لم يكن كافياً، تم بناء معرض ترشيح جديد، يوفر إمداداً يومياً قدره (2000) متر مكعب، بالقرب من حصن الحميدية (شرق طرابلس، قبالة طريق شارع الشط)، حيث كشفت التجارب عن وجود سطح مائي جوفي وفير. ويتم رفع المياه بالآلات، وعن طريق قناة تُنقل إلى خزان مُبطّن بالأسمنت يتسع لـ (2000) طن، ويقع في منطقة الظهرة. ومن هناك يتم توزيعها في جميع أنحاء طرابلس، مما يعطي بدلاً يومياً يبلغ



مجموعة من كبار الشخصيات العربية

حوالي سبعة جالونات للفرد لجميع السكان.

وقد بدأت بالفعل خطط لمعرض ترشيح ثانٍ من الحميدية، استعداداً للزيادة المستقبلية في الطلب من السكان المتنامين. تم تزويد محطة الصرف الصحي البحرية، والمستشفيات، ومختبر البكتيريا، وأجنحة العمال جميعها بقنوات خاصة. ويجري النظر في خطط أخرى لإدارة إمدادات المياه من ينابيع عين بومليانة، وللاستغلال الكامل للطبقات المائية الجوفية في طرابلس.

يتم تنفيذ إصلاح مشكلة الصرف الصحي وفقاً للخطوط التالية: تم إصلاح وتحسين مجاري المدينة، التي كانت محدودة وفي حالة سيئة، حيثما أمكن استخدام تلك الموجودة وقت الاحتلال. وفي الوقت نفسه، تم إنشاء مصارف تكميلية مؤقتة استعداداً لنظام عام كبير يشمل المدينة الحالية والمستقبلية. وللحصول على التنظيف اللازم للمجاري، وُضعت خطط لـ خزانين من مياه البحر، والتي ستُستخدم أيضاً لغرض إنتاج المياه في حالات اندلاع الحرائق. ونظام الصرف الصحي من النوع المختلط، مع خطين رئيسيين يمتدان إلى البحر باتجاه الشمال الغربي، خلف الميناء. يبدأ أحدهما من ساحة حي العمال المستقبلي، والآخر من النافورة القريبة من القلعة.

سيكون مقطع المجاري الرئيسية بشكل أساسي من النوع الإنجليزي البيضاوي، والمقطع الثانوي ممثلاً بالخنادق والمجاري المائية. سيتم غمر جميع عمليات التنظيف والمخارج (المصبات).

مسألة أخرى لا تقل أهمية هي مسألة الطرق. التي لم يتم الاعتناء بمعظمها بأي شكل من الأشكال، وكان الكثير منها غير صالح للاستعمال على الإطلاق. والرمال الكثيفة المتراكمة خلال الصيف كانت تتحول خلال موسم الأمطار إلى بحر من الطين، بحيث أن شرايين المدينة الرئيسية لم تلبِّ سوى بالكاد احتياجات حركة المرور. وتم إصلاح البنى التحتية مؤقتاً في الشوارع الرئيسية لضمان التماسك والصرف. وفي ربيع عام [1914]،

سيتم ترتيب كل شيء تقريباً بشكل منهجي، بحيث تستجيب طرقات المدينة للمتطلبات العامة.

أما بالنسبة للطرق الخارجية، فقد تم إصلاح الطريق الذي يمر بـ ثكنات الفرسان بطريقة حكيمة، بينما يتم حالياً إعادة بناء القسم الأول من الطريق المؤدي من سوق الخبز إلى قرقارش.

وبدأ العمل في إنشاء شارع واسع يربط ساحة سبارتو بحي الظهرة، وكذلك القسم الأول من الطريق من طرابلس إلى تاجوراء. وهذا الأخير ذو أهمية قصوى، سواء من الناحية العسكرية أو التجارية، كما يتضح من الحركة المرورية الكبيرة الموجودة الآن.

تم توسيع وتحسين الساحة والشوارع بالقرب من مبنى الجمارك. لكن أعمال الطرق الجارية في المدينة نفسها ذات طابع مؤقت فقط في الوقت الحاضر. لم يكن من الممكن تنفيذ حل هذه المشكلة المعقدة دفعة واحدة، لأنها تعتمد إلى حد كبير على تطوير نظام الصرف الصحي. وسيتم رفع وتوسيع العديد من الشوارع القائمة، وسيتم إنشاء العديد من الشوارع الجديدة.

سيتم تزويد بعضها بجدران عالية، كما هو الحال في طريق تاجوراء، بهدف دعم ليس فقط مستوى الطريق الحالي ولكن أيضاً مستوى الخطة المستقبلية التي يجري وضعها الآن. تشمل هذه الخطة، بالإضافة إلى تحسين الطرق القائمة وإنشاء طرق جديدة، ساحات مزروعة بالأشجار، وحدائق عامة بها نوافير، مما سينعش هواء المدينة الحار في أشهر الصيف الحارقة.

من أبرز المباني الجديدة التي أقامها الإيطاليون منذ الحرب هي محطة الحجر الصحي البحرية. هذا المبنى، الكبير والمنظم جيداً، تم إنشاؤه لتلبية المتطلبات الصحية. وهو مزود بـ أحدث الأجهزة الحديثة، ومختبرات كاملة للدراسة والبحث، وأجهزة تطهير، ومحطة كهرباء، ومياه شرب، ومغاسل- باختصار-، معهد يضاهي أي معهد في أي مدينة أوروبية.

تم توسيع وإعادة تنظيم المستشفى المدني، الذي أُعيد تسميته إلى فيتوريو إيمانويل، ومختبر البكتيريا، وتم تزويدهما بإمدادات المياه والكهرباء، وبكل التحسينات الأساسية وفقاً للمعايير الحديثة تماماً. على سبيل المثال، في زمن الأتراك، كان المستشفى (مبنى على شكل حرف U) في حالة مروعة من الإهمال والقذارة، لدرجة أن السكان الأصليين يفضّلون الموت في منازلهم البائسة أو على قارعة الطريق بدلًا من دخول المستشفى، إذ كانوا يعتبرونه «مكان الموت». غير أنّه بفضل المبالغ الطائلة التي أنفقتها إيطاليا على بناء منشآت جديدة وترميم المباني القديمة، تحوّل المستشفى إلى مكان صحي حقيقي للعلاج. وقد سررتُ شخصيًا بالتجوّل في أرجاء المستشفى برفقة الطبيب المسؤول، ويمكنني أن أشهد على تنظيمه الحديث والمتقن.

هناك غرفة عمليات مخصّصة لحالات التقيح، وأخرى أكبر للحالات المعقمة، وكلتاهما مزوّدتان بأحدث الأجهزة. كما توجد غرفة خاصة بالأشعة السينية، ومختبر مجهري واسع، وآخر كيميائي، بالإضافة إلى مكتبة مهيأة لخدمة الأطباء والمرضى. ولم يعد السكان الأصليون يأتون إلى المستشفى على مضض، بل باتوا يتوافدون إليه بشغف لتلقي العلاج.

رأيتُ في الأجنحة المختلفة رجالًا ونساءً وأطفالًا، كثير منهم يعاني من «الطاعون الخفي» الوراثي، وآخرون من التهابات حادة في المعدة، أو السل، أو التراكوما. جناح الأمراض المعدية منفصل تمامًا عن باقي الأقسام، وجميع الأجنحة مفصولة عن بعضها بممرات واسعة تحفّها أحواض من الزهور، فتمنح المكان جوًا مبهجًا ومريحًا للنفس.

تم أيضًا تنظيم المقابر، المسيحية منها والإسلامية، وتزويدها بمشارح وغرف مخصصة للتشريح. إلى جانب ذلك، بدأت العديد من الأعمال الأخرى ذات الأهمية الثانوية وهي الآن قيد الإنجاز.

تم تجديد مدرسة البنين والمدرسة الفنية بالكامل مع إيلاء عناية خاصة بالجوانب الصحية فيهما.



خطة طرابلس المستقبلية.



وقت العشاء لأولاد مدرسة المنشية

أما التجارة التي تتزايد وتيرتها بسرعة في طرابلس فستستلزم توسيع مكاتب الجمارك وتحسين تنظيمها، وهناك مشروع لإنشاء مستودعات جديدة وساحات مسورة في تلك المنطقة. كما سيتم توسيع مكتب البريد العام، ويحظى الترتيب المحسن للثكنات والمصانع القائمة باهتمام كبير.

تم بناء أربعة مجمعات سكنية لعمال المدينة، على شكل وحدتين متقابلتين، جُهزت بحمامات ودشات ومرافق صحية عصرية. وقد تم الانتهاء مؤخراً من إنشاء مطعم خاص للعمال، بحيث يؤمل أن يتمكن العمال من العيش براحة دون نفقات باهظة. وبالنسبة للموظفين، توجد خطة لتوفير مبنيين كبيرين، أحدهما بالقرب من الحصون، بجوار بوابة العدل، والآخر بالقرب من القنصلية الأمريكية.

ومن المشاريع الهامة الأخرى قيد الإعداد إنشاء مكتب بريد عام جديد ذي أبعاد ضخمة، ومكاتب أخرى لإدارة الأشغال العامة، بما يتوافق مع مخطط المدينة الجديدة.

هذا هو مخطط طرابلس الجديدة، الذي تكرمت إدارة الأشغال العامة بإرساله لي، وهو مثير للاهتمام للغاية لأنه يعطي لمحة عن المدينة كما ستكون في المستقبل.

المدينة القديمة داخل الأسوار، التي شكلتها الأحياء العربية واليهودية، سيتم الإبقاء عليها كما هي تقريباً ودون مساس، مع فصلها قدر الإمكان عن المدينة الأوروبية الجديدة.

المدينة الجديدة ستبدأ بشوارعها الأربعة المتفرعة من سوق الخبز باتجاه الواحة. وبعد ترميمها وتزيينها، ستكون هذه المنطقة قلب المدينة المستقبلية.

سينطلق منها طريق رئيسي كبير، يتتبع تقريباً مسار الشارع الغربي حتى القنصلية الألمانية، ثم يستمر بموازاة الأسوار، ليؤدي إلى ساحة واسعة محاذية للبحر، باتجاه الشمال الغربي، قبالة البوابة الجديدة.ومن القنصلية الألمانية سيمتد شارع ثانٍ إلى محطة السكة الحديد، ثم يستمر

باتجاه قرقارش، بينما سيربط طريق ثالث المحطة بالبوابة الجديدة. وفي المثلث الذي تتشكل أضلاعه من هذه الطرق، ستكون المنطقة المخصصة لتكون المركز الحيوي للمدينة الأوروبية المستقبلية.

المنطقة الصناعية ستكون في المثلث الذي يقع بين ساحل قرقارش، والطريق الذي يحمل الاسم نفسه، والطريق الرئيسي بين البوابة الجديدة والمحطة. وستكون هذه المنطقة في الجوار المباشر للحي الأوروبي، ومتصلة بخط السكة الحديد الموجود بالفعل.

المدينة الجديدة، الحديثة والأنيقة، التي تتألف من فيلات ومبانٍ قائمة داخل حدائقها الخاصة، ستمتد على طول الساحل شرقاً من ساحة إسبارتو، باتجاه تاجوراء.

أخيراً، ستُعاد هيكلة حي الظهرة بشكل صحيح مع شوارع موسعة، لتبدو كضاحية محلية منظمة.

سيتم ترميم ساحة إسبارتو، وإقامة نصب تذكاري لذكرى الجنود الذين سقطوا في الحرب، بينما سيتم تشكيل ساحة كبيرة في وسط المدينة الأوروبية. ستحتوي جميعها على حدائق، مع ممرات محاطة بالأشجار، وهو ترتيب سيُطبق أيضاً في الشوارع الرئيسية.

من الحدائق العامة، ستكون الحديقة الرئيسية بجوار البحر في المنطقة التي تحتلها حديقة القاضي الحالية، حتى الثكنات الإمبراطورية. وستقع حديقة أخرى في النقطة المسماة محجر صحي (لازاريتو)، ومن هذا الموقع المرتفع ستطل على بانوراما رائعة.

على طول البحر بأكمله سيكون هناك «ممشى عريض»، يبدأ من القلعة، ويمر بساحة إسبارتو والحديقة العامة، حتى يصل إلى مقابر القرمانلي. وستكون هناك وسيلتا اتصال بالميناء، واحدة بين سوق الخبز والرصيف الشرقي للقلعة، والأخرى من ساحة برج الساعة إلى الرصيف أسفل الحصون.

أما المباني العامة المزمع إنشاؤها، فتتقدمها **قصر الحاكم**،

و**قصر المحافظة** (مقر الشرطة الرئيسي)، و**قصر العدل** (المحاكم)، إلى جانب مباني المدارس المتوسطة البلدية، و**المقر العسكري**. وبإتمام هذه المشروعات، كان المخطط الإيطالي أن تتحول طرابلس إلى مدينة حديثة أنيقة، تجمع بين المحافظة على أحيائها التقليدية ذات الطابع الأصيل، وبين تشييد مدينة أوروبية عصرية يُراد لها أن تصبح مع مرور الزمن **منتجعًا شتويًا بديعًا**، وهو ما يتناسب تمامًا مع موقعها ومناخها المعتدل.

أما فيما يخص [شبكة السكك الحديدية]، فقد كان قائمًا في ذلك الحين أربعة خطوط رئيسية:

- طرابلس – تاجوراء
- طرابلس – عين زارة
- طرابلس – زنزور
- طرابلس – العزيزية

وكانت هناك خطوط أخرى قيد الإنشاء، ستزيد من ترابط المدينة مع محيطها:

- العزيزية – غريان
- زنزور– الزاوية
- تاجوراء – الخمس



وقت العشاء لأولاد مدرسة المنشية

الفصل التاسع: ميناء طرابلس

خطة أعمال الميناء - الأرصفة الرئيسية والثانوية - مكان الرسو - قاع الميناء - الأعمال الجارية حالياً - الذراع الأول للرصيف الرئيسي - حاجز الأمواج والرصيف البحري - تجريف وتعميق الميناء - المشاريع المستقبلية.

خُصّ الميناء منذ اللحظة الأولى للاحتلال بعناية خاصة من قِبل الحكومة الإيطالية، إذ أُدرج في مقدمة الأولويات بوصفه شريانًا حيويًا للمدينة وللاستعمار الجديد. لم تقتصر الخطط الموضوعة على الأعمال العاجلة فحسب، بل شملت أيضًا التصور الكامل للتنظيم النهائي للميناء. خلال محادثة مع المسؤولين المكلفين بهذا المشروع الهام للغاية، علمت أن الأعمال الرئيسية التي يجري دفعها قدماً بكل سرعة ممكنة ستكون على النحو التالي:

الرصيف الخارجي الرئيسي: سيتم بناؤه ليبدأ من الحصن الإسباني، مواجهاً للرياح الشمالية الشرقية («غريكو»)، وسيوحد جميع الصخور التي تبرز من البحر في تلك النقطة. ثم، بالانعطاف نحو رياح «الشروقي» أو الجنوبية الشرقية، سيلتقي بنهاية الضفة الرملية الغربية للمدخل.

الرصيف الثانوي: سيبدأ هذا الرصيف من مقابر القرمانلي، مواجهاً لرياح المايسترو، أو الشمالية الغربية، وسيتحد مع الرصيف الشرقي للمدخل.

سيشكل هذا التصميم ميناءً رائعاً للغاية سيحمي السفن بكفاءة من العواصف الهائلة التي تضرب السواحل خلال شهري ديسمبر ويناير.

اما أعمال إنشاء مراسي الإنزال، مع الآلات الحديثة والرافعات والمستودعات والمخازن والسقائف، كلها قيد التنفيذ في الوقت الحاضر. سيتم تجهيز الميناء أيضاً بـ أحواض رطبة، وسلالم تسلق، ومخازن فحم، وغير ذلك من المرافق الأساسية.

أثبتت سلسلة من عمليات السبر الدقيقة أن قاع الميناء الصخري

يوجد بالقرب من الساحل على عمق 7 أقدام فقط، ويتعمق باتجاه وسط الحوض ليصل إلى (50) قدماً. طبيعة هذا القاع المفكك من المواد المذابة تسمح بتعميق عام للميناء لمسافة كبيرة تصل إلى (33) إلى (40) قدماً. وهذا ذو أهمية قصوى، وسيتم تنفيذه في أقرب وقت ممكن.

تم تقسيم الأعمال الجاري إنشاؤها إلى فترات مختلفة. وسيتم تضمين الأعمال الأكثر إلحاحاً في الفترة الأولى وتنفيذها بموجب عقد. وهي تشمل :

(أ) بناء ذراع أول للرصيف: بطول [2260] قدماً، يبدأ من الحصن الإسباني، تاركاً الشعاب الصخرية الأولى إلى الغرب، ويتصل بصخور القاعدة الشرقية.

(ب) إنشاء حاجز أمواج: أو دفاع ضد عواصف الشمال الشرقي. هذا الحاجز، يبدأ من صخور القاعدة الشرقية، وسيبلغ طوله [700] قدم.

(ج) إكمال الجزء الأول من الرصيف المسور: بطول [500] قدم، مدعوم بكتل جانبية من الحجر، مما يشكل بذلك نتوءاً يبلغ طوله حوالي [1000] قدم عند اكتماله.

(د) تعميق القاع: تدمير الضفاف الرملية الموجودة عند مدخل الميناء، وتعميق القاع في المنطقة المواجهة للرصيف المسور.

تقدر تكلفة هذه الأعمال بـ [100,000] جنيه إسترليني، وتشكل إجماليًا، مع الأعمال الأخرى، [160,000] جنيه إسترليني.

كانت هناك صعوبات هائلة يجب التغلب عليها في مسألة إنزال جميع الآلات الثقيلة، نظراً لحقيقة أن أماكن الإنزال لم تكن قد اكتملت بعد وأن هيجان البحر لم يكن ليهدأ .

تم نقل الكتل الحجرية الكبيرة التي جُلبت من محاجر قرقارش إلى الميناء على عربات تسير على خط خاص على طول الساحل الذي يبلغ طوله حوالي [4.5] أميال. وقد تم إنجاز هذا الخط في ثلاثة أشهر، على الرغم من الأنفاق العميقة (بارتفاع 50 قدماً) التي كان لا بد من حفرها،



إحدى أوائل القاطرات في طرابلس

والعمل اللازم لحماية الخط من البحر.

حتى 31 ديسمبر 1913 كان قد اكتمل الرصيف الخارجي، ولم يتبق سوى جزء من الجدار الواقي الذي كان العمل فيه جارياً بوتيرة نشطة. وظهر أثر هذه التحصينات بجلاء أثناء عواصف ديسمبر، إذ كانت الأمواج العاتية ترتطم بكتل الرصيف فتتناثر رذاذًا أبيض شاهقًا، مانعةً إياها من اقتحام الحوض. كذلك شارف على الانتهاء تقاطع لسان الصخور عند القاعدة الشرقية، واكتمل جدار حاجز الرصيف، فضلًا عن إزالة معظم الضفاف الرملية عند المدخل.

لم تقف الخطط الإيطالية عند حدود ما أُنجز حتى نهاية عام 1913، بل امتدت لتشمل مشاريع مستقبلية ذات شأن كبير. من أبرزها بناء ذراع ثانٍ للرصيف يتجه في نفس خط الذراع الأول، ليغلق الفتحة القائمة بين شعاب القاعدة الشرقية والشعاب المعروفة بالرقم (III). سيبلغ طول هذا الذراع الجديد أكثر من 1700 قدم، ومع اكتماله ستتحقق الحماية الكاملة للحوض من العواصف العنيفة التي تهدد السفن.

إلى جانب ذلك، سيُستمر في أعمال التجريف بغرض مزدوج:

أولاً، تعميق قاع الميناء، وثانيًا، استخدام المواد الناتجة عن الحفريات لردم التجاويف.و الهدف أن يصل العمق العام للحوض إلى ما بين 24 و25 قدمًا، بينما سيبلغ عند خط الأرصفة 33 قدمًا، على أن يمتد هذا العمق حتى قرب حصن الجدار. أما في المنطقة الداخلية فسيُحفر حتى 23 قدمًا. بذلك ستصبح الأرصفة قادرة على استقبال البواخر ذات الغاطس حتى 20 قدمًا مباشرة، ومع تنفيذ الخطة النهائية ستتم تهيئتها أيضًا لاستقبال بواخر المحيطات الكبرى، بعمق يتراوح بين 30 و33 قدمًا تحت مستوى البحر.

الأعمال الثانوية المقررة لا تقل أهمية، إذ تشمل:

هدم جزء من أسوار المدينة، بين مكتب التلغراف اللاسلكي والبوابة الجديدة.

تنظيم القناة التي تصل الحوض الداخلي بالبحر المفتوح، لتأمين مرور مباشر نحو محطة الحجر الصحي البحرية.

إزالة أو تعديل أماكن الإنزال القديمة لتتلاءم مع النظام الجديد.

إن مخطط الميناء بأسره يعدّ أضخم مشروع في طرابلس، إذ قُدرت تكلفته الإجمالية بنحو 300,000 جنيه إسترليني. وقد ساعد الإيطاليين كثيرًا توفر الأحجار اللازمة من محاجر قرقارش، ما خفّض من النفقات بصورة ملحوظة.

ولإدراك قيمة هذا المشروع بالنسبة للمستقبل التجاري للمدينة، تكفي الإشارة إلى إحصاءات عام 1912 التي توضح حجم الواردات والصادرات، قبل اكتمال الميناء الجديد:

جدول التجارة (1912) – طرابلس

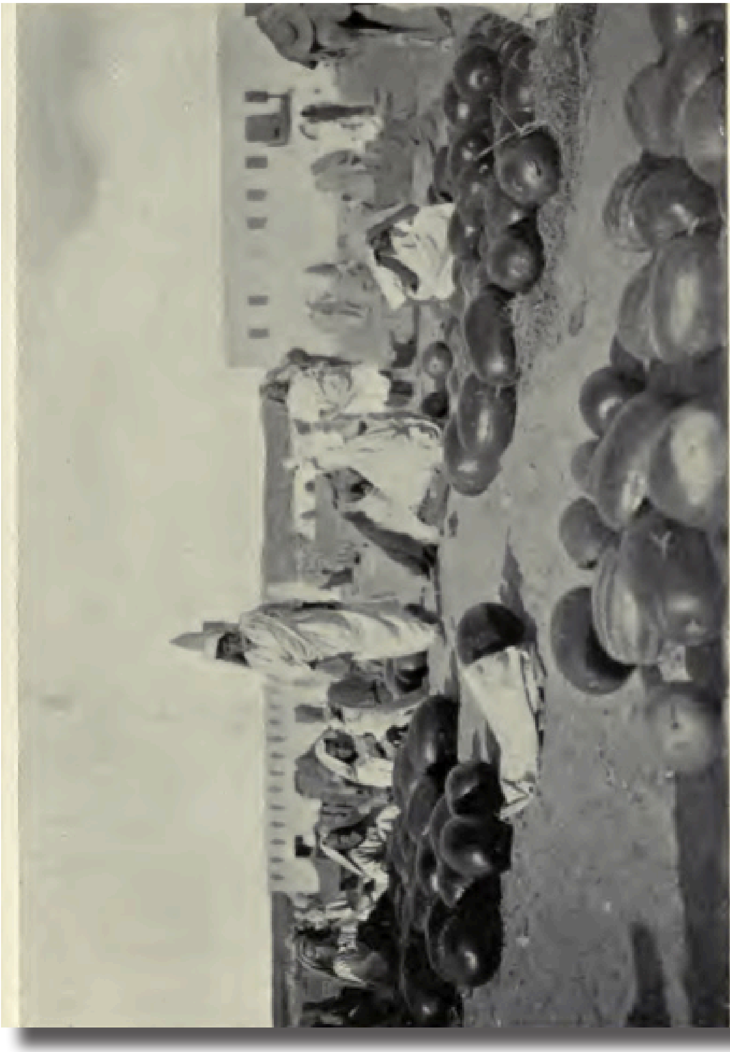
الدولة	الواردات (ليرة)	الصادرات (ليرة)
إيطاليا	10,961,168.80	1,056,870
فرنسا[1]	7,189,824.50	1,366,924[2]
إنجلترا[3]	1,698,803	642,176[2]
ألمانيا	1,155,415	-
النمسا-المجر	1,363,752	-
دول أخرى	5,413,023.80	962,550
الإجمالي	27,781,985.10	4,028,520

من الطبيعي أن نتوقع، مع اكتمال هذا الميناء الحديث، أن تتضاعف هذه الأرقام لتجعل من طرابلس مركزًا تجاريًا متفوقًا على مستوى البحر المتوسط.

1-فرنسا وتونس.

2-فرنسا، الجزائر، وتونس.

3-إنجلترا ومالطا.



بطيخ للبيع

الفصل العاشر: عرب طرابلس

عيد الأضحى (عيد الصغيرة) - عادات قديمة - تسلية حديثة في العيد - اللغة - الإهمال في المرض - لباس النساء - الحمام - وليمة الولادة.

اليوم، التاسع من نوفمبر، يبدأ عيد الأضحى (المعروف محلياً باسم عيد الصغيرة)[1] عند المسلمين، ويستمر أربعة أيام، يكون خلالها الكثير من الضجيج في طرابلس. بدأ العيد فعلياً مساء أمس بإضاءة مآذن جميع المساجد، وبدت المدينة من شرفة سطح منزلنا وكأنها مزينة في كل اتجاه بقلائد من الألماس الأصفر.

في الصباح الباكر جداً، أيقظتنا المدافع التي أُطلقت احتفالاً ببداية اليوم الأول من العيد، والتي ستدوي طوال اليوم في ساعات أذان المؤذنين للصلاة.

يُخلّد عيد الأضحى ذكرى تضحية إبراهيم، وقبل ذلك بفترة يكون العرب جميعاً مشغولين بشراء الأغنام. تشتري كل عائلة تستطيع ذلك واحدة أو أكثر، ويُعطي الأغنياء لمن هم أفقر من أن يشتروا لأنفسهم. وفي هذا الوقت، يكون سوق الأغنام مسرحاً لمشاحنات حية، بينما تُدفع الحيوانات التعيسة وتُفحص بطريقة لا تتحملها أي خروف فائز في معارضنا للحظة واحدة.

في اليوم التاسع، تُذبح جميعها، ويُقام وليمة كبيرة في كل بيت عربي في ذلك المساء. أما ما تبقى من اللحم، فيُقطع إلى شرائح، ويُملح، ويُعلق على حبال ليجف، ليكون طعاماً لفصل الشتاء.

بعد ظهر هذا اليوم نتجول في ساحة السوق لنرى العرب، صغاراً وكباراً، يستمتعون بوقتهم. من الممتع مشاهدة خليط التسلية البدائية والحديثة:

1- (AID ASKRIRA) المترجم: تخلط الكاتبة بين عيد الفطر ويسمى العيد الصغيرة، وعيد الاضحى ويسمى العيد الكبيرة

هنا على اليسار، في مقهى، تجتمع حشود كبيرة، يستمعون إلى فونوغراف ضخم، من أحدث طراز، يعزف أغاني حب عربية لا نهاية لها.

بالقرب منه يجلس صبي على الأرض يصنع مزامير من القصب، يجد لها رواجاً كبيراً، ويُصدر منها (لا نستطيع، مهما حاولنا) موسيقى حزينة، غريبة وجذابة.

الآن نأتي إلى الأراجيح الدوارة- نعم، تماماً كما قد تكون في أي معرض قروي إنجليزي، وإن كانت أكثر بدائية في بنائها. لا قوارب أو بجعات فاخرة، ولا خيول ملونة بألوان زاهية ذات أعراف متطايرة، بل مقاعد خشبية خشنة، بعضها بجوانب منحوتة، ولكن الكثير منها مجرد لوح للجلوس عليه مع آخر كظهر، مربوطة بحبال إلى عمود مغروس في الأرض.

القوة الدافعة ليست كهرباء أو بخاراً، إنهم مجرد أولاد عرب، يدفعون بكل قوتهم وجهدهم، يعملون بلا كلل للحفاظ على دوران الأراجيح وإمتاع الركاب في دوامة من الفرح والبهجة.

إن مشهد ركوب الأراجيح يعكس تنوعًا اجتماعيًا وثقافيًا فريدًا: نرى فتيات عربيات صغيرات يرتدين أزياءهن الاحتفالية، مترددات بعض الشيء، ويحيط بهن إخوانهن لحمايتهن؛ وزنجيات صغيرات مرحات، ضاحكات، في فساتين وأوشحة زاهية؛ وأولاد عرب، كبارًا وصغارًا، إلى جانب عدد من البالغين الذين يبدون اهتمامًا شكليًا بأطفالهم لكنهم ينسجمون مع المرح مثل أي شخص آخر. وبائعو الحلوى والزنجيات بسلال المكسرات يزاولون تجارتهم بنشاط وحيوية. وهناك حمير يُستأجرها الأطفال للركوب، مع سائقيهم الصغار الذين يصرخون ويضربونها، بينما يرتدي الركاب معاطف مخملية مزخرفة وقمصانًا بيضاء نظيفة وطرابيش أنيقة، وهم يصرخون: «بالك! بالك!»، وتمر العربات المجرورة بالبغال محملة بالناس المتأنقين في أزيائهم الاحتفالية.

أبعد من ذلك، يلتف حشد حول الموسيقيين المكفوفين الجالسين على الأرض، يعزف أحدهم على الدربوكة، وآخر على مزمار قصب محسّن،



القوات الاصلية

بينما ينشد الثالث ترانيم دينية متواصلة. بالقرب من جدار، يجلس عراف عجوز بلحية بيضاء طويلة، أمامه لوح مغطى بالرمل الأصفر، يستخدمه لرسم العلامات السحرية التي توحي بمستقبل الحظ والثروة والذرية لأهل البيت، في تقليد ممتد لا يتغير.

أما النساء فغالبًا ما يغبن عن المشهد العام، مشغولات في المنزل بتحضير وليمة المساء، التي تكون كبيرة جدًا وتتطلب شجاعة وهضمًا جيدًا للمشاركين. في المنزل، ترتدي نساء العرب رداءً طويلاً من الحرير أو الشاش، يبلغ حوالي خمسة عشر ياردة، يلف حول الرأس والجسم في طيات أنيقة تشبه الساري الهندي. تظهر أكمام القميص الأبيض أو الملون والسراويل الفضفاضة المجموعة عند الكاحلين، وتتحرك النساء بصمت ورشاقة، وهن يقمن بتحضير طبق «الكسكسي» الوطني مرتّبًا بعناية على الأرض مع الحبوب والفواكه والفلفل واللحم.

اللغة في طرابلس الغرب أنقى وأقرب إلى الكلاسيكية مقارنة بعرب تونس، ويلاحظ اختلاف تعابير النساء عن الرجال، إذ يسخر الرجال أحيانًا من كلام النساء ويصفونه بـ «كلام نسوان». أما العادات الصحية، فالنساء والرجال مهملون بشكل كبير، ويرفضون غالبًا استخدام الدواء، حتى ضد الأمراض الخطيرة، إلا عند الضرورة القصوى.

في أيام الاثنين والخميس، تذهب النساء إلى الحمام التركي، محجبات بـ «برقعاتهن»، يرافقهن زنجيات يحملن مراهم وزيوت وعطورًا. الحمام الرئيسي في زنقة قرب جامع درغوث، وقد بناه درغوث باشا في القرن السادس عشر، وكانت الإيرادات تصرف سابقًا على صيانة أسوار المدينة، أما الآن فتُخصّص لإدارة الأوقاف. عند الدخول، توجد غرفة انتظار كبيرة بها نافورة حجرية قديمة، ومن ثم غرفة الحمام نفسها، واسعة، رطبة ودافئة، بأرضيات وألواح رخامية، وغرف الاستراحة المريحة مزدانة بالسجاد والأرائك. النساء يسترخين هناك، يشربن القهوة التركية ويتبادلن الحديث، ويعد الحمام حدثًا اجتماعيًا أسبوعيًا مهمًا.

كم يحب العرب الأعياد والمواسم الاحتفالية! فإلى جانب المناسبات الدينية، يقيمون أفراحًا كبيرة مصحوبة بموائد لا تنتهي، سواء عند الولادات، أو الختان،[1] أو الزواج، وحتى عند الجنازات، فمع أن الفرح يتحول أحيانًا إلى حزن، تظل «الوجبة» عنصرًا بالغ الأهمية في مراسم الحفل.

عند ولادة ابن، يُوضع المولود، المسمى «لمتولد»، في سرير عربي فخم، ويأتي جميع الأقارب والأصدقاء لتهنئة الوالدين، وتعلو كلمة «مبروك» من كل جانب. لكن لا يجوز لأي عين مسيحية أن تنظر إلى الطفل،وإلا فلن يكون «مباركاً».

يتم الختان بين العرب عند سن العاشرة،[1] وبعد سبعة أيام من الولادة، يجتمع الرجال والنساء في جانبي المنزل المتقابلين لحضور وليمة ضخمة. تُزيَّن الشقق بفخامة، بينما يعزف الموسيقيون على num النم،[2] نوع من القيثارة، والعود أو الماندولين المحلي، ويقرعون الداربوكة، ويصطدمون بالصنوج العالية الصوت - كل ذلك ليهدئ المولود الصغير. تستمر الاحتفالات، مصحوبة بغناء الأغاني العربية، التي قد تُؤلف خصيصًا لهذه المناسبة، من الصباح حتى المساء. بعد انتهاء الحفل، تغادر النساء المحجبات إلى منازلهن، ويعم الصمت مرة أخرى بيت المولود.

بعد أربعين يومًا، يُعاد الاحتفال ذاته، ليبدأ الطفل حياته وسط تهاني الخير والأمنيات الطيبة من الجميع.

ومن بين الأغاني العربية المفضلة للاحتفال بميلاد ابن:

«سو! سو! سو! نسائم البحر تهب على حدائق النخيل المثمرة،
الطيور بأجنحتها المخططة تهمس بأغاني الحب.
افرحوا! افرحوا! ولد محارب بعين النسر،

1- (انظر: تونس البيضاء، بقلم مريم هاري).

2- المترجم: للتنبيه/ معلومات الكاتبة من مصادر خارجية وهي ليست دقيقة، ولا تعتمد على ملاحظات مباشرة شاهدتها، او معلومات من افواه الاهالي الذين قابلتهم.



الأولاد العرب يستحمون



على الأراجيح الدوارة في عيد الأضحى

وبشجاعة النمر!
ليحفظه الله بسماواته العقيقية،
بستاره الأزرق الفاتح.
المجد لأمه الخصبة،
والشرف لأبيه الفخور.
افرحوا! افرحوا! غنوا! ارقصوا!»[1]

1- انظر فينتشنزو مينغي، «الشواطئ الأخرى لإيطاليا».
(المترجم) الاغنية ليست له علاقة بأغاني أعراس طرابلس.

الفصل الحادي عشر المزيد عن العرب

أعراس العرب - عادات زفاف غريبة - بعد يوم الزفاف - بعض عادات زواج البدو - ضربة «التليك» - عادات في جنازات العرب - «البركة فيكم» - نواح النساء - «مكتوب»

تبدأ أعراس العرب يوم الاثنين؛ أي أن أول استعداد يبدأ في ذلك اليوم، عندما يرسل العريس إلى منزل العروس المظلة التي ستُحمل في موكب يوم الخميس التالي إلى منزله. وإذا كان العريس ثريًا، يرسل لها كيسًا مليئًا بأوراق الحناء التي تستخدمها النساء العربيات لأغراض التجميل، إضافةً إلى خروفين أو ثلاثة، وكميات من الزيت والحبوب - أي كل ما يلزم لإقامة وليمة الزواج للنساء في منزل العروس. يرافق هذه الهدايا موسيقيون يعزفون على الطبل والزمر (الناي).

ثم يُقام حفل غريب: العروس، مغطاة ببرقع حريري فاخر، تمسكها وصيفتان من جانبي الخصر بينما تتقدم ببطء ورسمية، وتسبقها ثالثة تمشي إلى الخلف ممسكة بمرآة أمام وجه العروس، حتى تنظر إليها وهي تمشي. وعند وصولها إلى كيس الحناء، تجلس عليه سبع مرات متتالية للحظ السعيد في منزلها المستقبلي، وهي عادة قديمة لا تُغفل يوم الاثنين.

يوم الثلاثاء، بعد أن سحقت النساء أوراق الحناء، توضع العجينة على رأس العروس وقليل منها على يديها، بينما تجلس العروس وتحيط بها صديقاتها، وكل واحدة منهن تضع يدها على رأس العروس وتمتدح فضائلها، سواء كانت صحيحة أم لا، فهذا أقل أهمية. وفي مساء الأربعاء، تُغطّى يداها وقدماها بالحناء، بحيث يظهر كل منها كأنه أسود تقريبًا، من كامل الكف إلى المفاصل، ومن باطن القدم إلى باقي القدم على شكل «حذاء».

الخميس هو اليوم العظيم؛ بعد هذه الاحتفالات والاستعدادات،

يصل يوم الزفاف الفعلي. في الصباح تأخذ العروس حمامًا متقنًا وتعطر بعطور شرقية غنية. وفي الساعة السادسة مساءً تُزف تحت المظلة إلى منزل العريس. وقبل دخول الغرفة المخصصة للزواج، ترمي العروس بيضة على عتبة الباب العليا، وتكسر جرة ماء، وهي عادات قديمة لجلب الحظ السعيد. وتُلبس العروس ملابس حريرية فاخرة وحلي ذهبية وبرقعًا حريريًا، كلها من هدايا العريس، في حين أن معظم المجوهرات الأخرى تُستأجر للمناسبة.

تُترك العروس جالسة، مغطاة بقطعة كبيرة من الحرير، بينما تصل صديقاتها ويبدأ الاحتفال. ثم يأتي العريس بعد صلاته من المسجد برفقة أصدقائه، يغنون ويمرحون، ثم يدخل وحده إلى الغرفة حيث تنتظره زوجته المحجبة. يضع كل منهما قطعة سكر بين شفتي الآخر كرمز لحلاوة الحياة الزوجية، ويقدم العريس هدية من المجوهرات أو العملات الذهبية. تبقى الولائم والموسيقى مستمرة حتى وقت متأخر من الليل، وغالبًا حتى صباح اليوم التالي.

تستمر زيارة صديقات العروس لمدة سبعة أيام، مع تقديم الولائم لهن، ثم بعد أربعين يومًا تُعاد الزيارة لتناول الطعام، لتنتهي احتفالات الزفاف.

وبين العرب البدو، تُمارس نفس العادات تقريبًا، لكن لديهم عادة إضافية مثيرة: في يوم الزفاف، يُقدّم العريس لعروسه منديلاً حريريًا مليئًا بالمكسرات والحلويات وكعك السكر، وخمس خواتم فضية. كما يوضع زوج قديم من «التليك» (أحذية عربية) عمدًا في الغرفة التي يلتقي فيها الحبيبان، بحيث يمسك العريس بحذاء وهي بالحذاء الآخر، ومن استطاع ضرب الآخر أولًا يُنظر إليه على أنه «الحاكم» للمنزل بعد ذلك. يُعتبر هذا علامة لا تخطئ، وقد يكون فيها شيء من الحقيقة.

ولمدة سبعة أيام بعد الزفاف، يستمتع العريس بزواجه، ويتجول في حدائق الواحة، دون عمل، ويكون دائمًا برفقة مجموعة من أصدقائه.



جميلة عربية

ولكن في اليوم السابع، يجب أن يكون حذرًا جدًا، إذ سيحاول أصدقاؤه خداعه فجأة. وإذا نجا منهم، يكون الأمر حسنًا، ويمكنه العودة إلى منزله بأمان، وإلا، فإنهم يخلعون ملابسه ويضربونه، وهو ما يُعد مكافأة بسيطة مقابل الولائم والترفيه. لكنها عادة متوارثة، وتشبه «قانون الميديين والفرس» وهؤلاء الناس لن يغفلوا أصغر طقس توارثوه عن أجدادهم.

يُمنع أتباع النبي بموجب تعاليمهم من إظهار الحزن بالصراخ أو النواح، ولكن الطبيعة البشرية أقوى من ذلك. فعندما يأخذ الموت أحد أفراد الأسرة، يُفرِغ الأقارب مشاعرهم بالصراخ الحاد والنحيب بصوت «أوه! أوه! أوه!»، ذلك الصراخ الغريب للنساء الذي يُشعر من يسمعه بالرعشة، وهو يرن في الهواء الساكن ليلاً. وتخدش القريبات وجوههن ورقابهن حتى يسيل الدم منهن. وقد رأيت امرأة بدوية بعد ثلاثة أيام من وفاة طفلها والدم الجاف ما تزال آثاره بادية على وجهها وعنقها، إذ لا تُزال هذه العلامات إلا بعد مضي وقت طويل. وخلال الليل، تتواصل أصوات النواح، مصحوبة بإيقاع العصي على طاولة صغيرة أو على صندوق كان يعود للمتوفى. ومع وصول النادبات المحترفات، يتولى أحد أقارب الميت تلاوة مناقبه وذكر محاسنه الشخصية، على نحو ما جاء في إحدى المراثي:

«كانت عيناها رقيقتين كعيني غزال،
وبشرتها ناصعة كالابستر،
وشعرها متدفقًا كعرف أسد،
عودي لتبتهج بك الأرض من جديد.»

في ذروة الحزن، يُلقي النادبون بأنفسهم على الأرض، ويتمادون في إحداث الجروح بأجسادهم، ويقتلعون شعورهم من أصولها، فيما تتمزق ملابسهم حتى تغدو أشلاء. وفي هذه الحال من الكرب العقلي، يظهر عليهم الاستخفاف بالألم.

يُغسَّل جسد المتوفى بعناية فائقة، ويُطيَّب بالطيب، ثم يُكفَّن بكفن

طويل من الكتان الأبيض، ويوضع في صندوق يشبه التابوت الكبير. وفي اليوم التالي للوفاة يُنقل إلى المقبرة. ولا يمتاز موكب الجنازة بسمات خاصة، غير أن حَمَلة النعش يتبادلون المواقع باستمرار، إذ يُعدّ الاشتراك في حمله عملاً ذا فضل روحي كبير. ولأن الشريعة الإسلامية تحظر دفن المسلم في نعش، ويُعاد الصندوق بعد الدفن إلى الفقراء.

شهدتُ بنفسي جنازة عربية في تونس، تخص امرأة، فراقبت الطقوس عن بُعد وأنا جالسة على أحد القبور. بعد صلاة موجزة تضمنت تلاوة آيات قرآنية وأدعية، أُهيل التراب على القبر، وغادر معظم الأقارب المكان، ولم يتبق سوى قلة من النساء. تقع المقبرة في فضاء واسع خارج أسوار المدينة، وقد بدت أكثر جمالاً مما يخيَّل عادة لهذه المواضع. وكانت المسافة بين القبور مكسوّة بأزهار صفراء زاهية أضفت على المشهد مسحة من الألوان البديعة. وتفرقت مجموعات من النساء المحجبات منحنية على قبور متفرقة، بينما تلمع المدينة البيضاء في الأفق تحت شمس الظهيرة.

أغلب القبور لم تكن سوى أكوام ترابية مستطيلة لا تثير الانتباه، غير أن بعضها تميز بوجود شاهد حجري يدل على مدفن شخصية بارزة أو رب أسرة. وبعد وصول المشيعين، جرت طقوس خاصة؛ إذ اصطفّ جميع الأقارب الذكور بمحاذاة جدار المقبرة، ومرّ الأصدقاء أمامهم واحدًا تلو الآخر. وقد دعيتُ بحرارة للانضمام إلى الموكب، ففعلت، مكررة لكل رجل عبارة: «البركة فيكم»، أي ما معناه «لقد مات، غير أني أتمنى لك طول العمر».

أما النساء، فيستمر حدادهن في منزل الفقيد عدة أيام. المشهد مؤلم؛ إذ تستقبل الأرملة أو الأم المفجوعة معارفها من النساء، وتندفع كل زائرة عند دخولها الغرفة وسط الحاضرات لتلقي بنفسها على صاحبة المصاب، وتصرخ بصوت حاد، ثم تتمايل معها بعنف حتى تبلغا ذروة الانفعال. وعندما تنفلت الزائرة من هذا العناق الصاخب، تترنح النائحة إلى مقعد أو إلى الحائط، وقد أنهكها الجهد العاطفي. ويتكرر المشهد ذاته



محراب جامع قرجي



نساء جنب الجدار

مع كل زائرة جديدة، ويكون الأقرباء أكثر إلحاحًا في مطالبهم من المرأة المنكوبة، حتى لتبدو المحافظة على سلامتها العقلية أمرًا عسيرًا.

ويظل هذا الطابع من الحداد مقصورًا على النساء، بينما يبدي الرجال سكينة واستسلامًا، انسجامًا مع العقيدة الإسلامية في الإيمان بالقضاء والقدر. وما إن تخفت وطأة أثر الفقد حتى يستأنف الرجل نشاطه المعتاد، وفي المساء يجلس ليدخن النرجيلة ويتمتم في ذهنه: «مكتوب»؛ أي إنها إرادة الله.

الفصل الثاني عشر خرافات، تعاويذ، أساطير

تعاويذ ضد الجفاف - كيف تعالج شجرة ذابلة - خرافة السحلية - تعاويذ تستخدمها الزوجة الأولى ضد ضرتها - جرعات ضد المرض - تعويذة حب - أسطورة السارق.

تشمل المعتقدات الشعبية في طرابلس الغرب مجموعة واسعة من الخرافات والتعاويذ التي تحظى بقبول راسخ بين العرب والقبائل البربرية. وكثير من هذه الممارسات يرتبط بهطول الأمطار، الذي يُعدّ في هذه المنطقة، كما في سائر المشرق، عنصرًا حيويًا.

عند حدوث الجفاف أو تأخر نزول المطر، يعتقد الناس أن صيام يومين في الأسبوع يرضي الله ويجلب الغيث. وفي إحدى الفترات، إبان الحكم العثماني وقبل نحو سبع سنوات، تعرضت المنطقة لجفاف شديد، فقصَد بعض الأهالي الحاكم العثماني للتوسل إليه. فأدى طقسًا غريبًا؛ إذ توجه إلى بئر رئيسية، خلع حذاءه، وسار حافيًا صعودًا وهبوطًا عند منحدر البئر وهو يقود بقرة لجرّ الماء. لا يوضح التاريخ ما إذا أثمر هذا الطقس عن نتيجة عملية، إلا أن مجرد القيام به جلب راحة نفسية للناس.

ومن الخرافات اللافتة أن الشجرة إذا أصابها الذبول، يقوم الناس بحرق رؤوس ثلاثة من الغنم بصوفها عند جذعها، إيمانًا بأن ذلك سيعيد إليها العصارة والحياة.

أما السحلية فتحتل موقعًا في الخيال الشعبي؛ إذ يفسَّر عجز الأم عن إرضاع طفلها بأنه ناجم عن لمس السحلية لثديها، وهو اعتقاد يلقى قبول عند الزوج الذي يخشى أثرها السحري.

لدى البربر طقس آخر لاستجلاب المطر يتمثل في حفر حفر كبيرة في الرمال وملئها بأكياس جلدية تحتوي على «ألف حجر»، حيث يُستخدم

العدد «ألف» للدلالة على الكثرة.

التعاويذ مرتبطة كذلك بالعلاقات الزوجية. حين يتزوج الرجل بامرأة ثانية، وقد تلجأ الزوجة الأولى، بدافع الغيرة، إلى الاستعانة ب»الفقيه» لصنع تعويذة تبعد الزوج عن ضرتها. ويُكتب على طبق أبيض نص يحمل أمنيات شريرة ضد الزوجة الثانية، وغالبًا ما تكون بصيغة «ألا تلد ولدًا». ثم يُستخدم الطبق لتقديم الطعام للزوجة الثانية، اعتقادًا أن اللعنة تنتقل إليها عبر الأكل. أحيانًا تُكتب التعويذة على ورقة وتُخاط في كيس جلدي يوضع سرًا في ملابس الزوج، فيبدأ بالانصراف عن زوجته الثانية.

كذلك تُستخدم التعاويذ في علاج الأمراض. يُروى عن مريض عانى طويلًا دون جدوى من علاجات الأطباء، غير أن «الفقيه» أوضح أن أحدهم قد دس له قصاصات أظافر ربطها بخيط ووضعها في طعامه، ما سبب له العلة. فكتب «الفقيه» رموزًا سحرية على طبق أبيض وغسله وجعل المريض يشرب ماءه سبعة أيام متتالية، حتى تقيأ الخيط وما فيه، فشُفي.

كما توجد ممارسات أخرى، مثل كتابة التعويذة على ورقة وإحراقها، ثم استنشاق دخانها عبر الأنف. يُقال إن هذه الطريقة عالجت شابًا من الجنون بعد فشل محاولات الطب. وقد تقاضى «الفقيه» أجرًا كبيرًا (100 فرنك)، مهددًا بأن الشاب سيعود إلى الجنون إن لم يُدفع المبلغ في الموعد، الأمر الذي دفع الأسرة للدفع فورًا.

أما التعاويذ العاطفية، فتُستخدم لتسريع الزواج أو ترسيخ المحبة. تحكي إحدى الروايات عن فتاة شابة وقعت في حب رجل وسيم لمحته من نافذة منزلها. فاستعانت بالعجوز الوسيطة، وهي شخصية مألوفة في البيوت العربية، لكن حين تأخر الرجل في خطبتها لجأت إلى «الفقيه». وصنع لها تعويذة حب نجحت في اجتذاب الرجل وتزوجها بالفعل. غير أن «الفقيه» كان قد حذرها من أن أثر التعويذة مؤقت، وبالفعل انتهى تأثيرها بعد عامين، فاختلت العلاقة الزوجية.

تظهر هذه الأمثلة تنوع الخرافات والتعاويذ التي لعبت دورًا في الحياة

اليومية، سواء في مواجهة الطبيعة، أو في العلاقات الاجتماعية، أو في مواجهة المرض، مما يعكس قوة الاعتقاد الشعبي وقدرته على ملء فراغ العجز البشري أمام المجهول.

وبعد انقضاء أثر التعويذة، زال حب الزوج لزوجته الأولى، فتبرم بها وتزوج أخرى، بينما راحت الأولى تحلم بتعاويذ تطرد منافستها. هكذا تجسّد المعتقدات الشعبية تقلبات الحياة الاجتماعية.

القصة التالية روتها لي امرأة عربية مسنّة أكدت أنها «حقيقية تمامًا»، وهي أقرب في نسجها إلى حكايات ألف ليلة وليلة. تحكي أن رجلًا عربيًا ثريًا ورفيع المكانة، قبل نحو مئة وخمسين عامًا وقبل قدوم العثمانيين، أبصر امرأة يهودية فاتنة في الطريق. انبهر بجمالها ودعاها إلى بيته لتعيش معه، لكنها رفضت، مؤكدة أنها مخلصة لزوجها. فألحّ طالبًا شعرة من رأسها كتذكار. دخلت المرأة منزلها وأخذت شعرة طويلة من منخل مصنوع غالبًا من شعر ذيل حصان أوبقرة، وأعطته إياه. في تلك الليلة، هاج المنخل وبدأ يقفز داخل البيت ويضرب الباب. وعندما فتح الزوجان، تدحرج المنخل إلى بيت الرجل الثري. استقبله بفرح، لكنه أدرك عند رؤيته أن سحره قد فشل، وأن قوة الحب المخلص أقوى من أي تعويذة.

كما روت المرأة نفسها قصة أخرى ذات مغزى أخلاقي عميق. تذكر أن لصًا تسلل قديمًا إلى بيت عربي ثري من أسرة مرموقة، فقبض عليه صاحب البيت. غير أن العربي لم يغضب، بل استضافه على مائدته وأطعمه من «الكسكسي» واللحم حتى شبع، ثم نصحه بألا يسرق مجددًا، مؤكدًا أن الله يرزق عباده. ومنذ ذلك الحين وجد اللص طعامًا يسد رمقه كل ليلة.

إلا أن طمعه عاد حين قصد تاجرًا ثريًا طلبًا للصدقة، فلم يعطه سوى نصف جزرة. استشاط غضبًا، وأقسم أن يعود للسرقة. اختبأ في بيت التاجرواكتشف موضع مفاتيحه، ثم تنكّربثوب سلطاني وكتب ورقة جاء فيها: «أنا ابن السلطان، وكل ما هنا ملكي.» ملأ جيوبه ذهبًا، وأخذ

كيسًا من المرجان وكميات من التبغ والسجائر، وراح يدخن مستمتعًا. غيرأن التاجروزوجته استشعرا الدخان وأبلغا الشرطة. وعندما حضرت، رشاهم اللص بالذهب فانصرفوا، وكذلك فعل مع من تبعهم حتى جاء الباشا. كرر أمامه أنه «ابن السلطان»، فصدّقه الباشا واصطحبه إلى بيته، ثم زوّجه ابنته.

وبعد الزواج، استولى اللص على بيت التاجر الذي لم يمنحه سوى نصف جزرة، وصادرثرواته، فيما نقل التاجروزوجته إلى بيت فقيربجوار مقبرة العرب، وقال لهما: «ليكن لكم عبرة ألا تدعوا الفقيريبكي قهراً.»

الفصل الثالث عشر: الحارة، أو الحي اليهودي

الغيتو صباح يوم الجمعة - عمل المرأة - مدارس للبنين - دار للمسنين - مدرسة للبنات - عادات غريبة - الالشعائر في الكنيس - لباس النساء.

يُقدَّر عدد اليهود في طرابلس بنحو 15 ألف نسمة، ما يجعلهم عنصرًا اجتماعيًا بارزًا في المدينة. الحي اليهودي - أو «الحارة» - يمثل فضاءً غنيًا بالأنشطة والعادات، ويغدو في صباح يوم الجمعة على وجه الخصوص مركزًا مفعمًا بالحركة. إذ يخرج السكان للتبضع استعدادًا ليوم السبت، يوم الراحة والعبادة لديهم.

تبدأ جولتنا قرابة العاشرة صباحًا، عبر شارع ضيق مكتظ بالمتسوقين، حيث تصطف بسطات الفاكهة والخضار والحلويات الملونة، إلى جانب عشرات المحال الصغيرة لبيع المواد الغذائية والضروريات. يغلب على رواد السوق الرجال، بينما تنشغل النساء في المنازل بإعداد وجبات السبت. لكن خلف هذه الزحمة، تكشف الأفنية الداخلية عن صور أخرى من النشاط: نساء يرتدين التنانير المخططة والقمصان الفضفاضة الملونة، وأوشحة الحرير الأرجوانية والزرقاء، يتهيأن لطهو الطعام. وفي فناء آخر، نلتقي نساء مسنات يقمن بغسل الأوعية الزجاجية التي تستعمل في المعابد للإضاءة. ووفق المعتقد المحلي، المشاركة في هذا الطقس الأسبوعي تجلب طول العمر والسعادة. أما في عيد الفصح، فتتولى العوانس تنظيف المعابد كاملة، أملاً في أن يكون ذلك نذرًا يجلب لهن الزواج.

يتوزع التعليم في الحارة بين مدارس تقليدية وخيرية. ففي «صلاة السرويسي» توجد مدرسة للبنين الفقراء ممولة بالكامل من التبرعات، تضم نحو 550 تلميذًا، كثير منهم أيتام. يحصلون على التعليم إلى جانب الطعام والكساء. وفي شارع آخر نصادف مأوى للمسنين يعرف ب»صلاة الحرفة»، حيث يجلس رجال طاعنون في السن، بعضهم يقرأ أو يصلي،

وآخرون يكتفون بالجلوس في هدوء. يقدم لهم المكان طعامًا ورعاية يومية. وقد شهدنا هناك رجلاً وقورًا يتلو صلاة مطولة من العهد القديم لأجلنا، بعد أن أعطيناه أسماءنا، وسط تفاعل الحاضرين.

تُستعمل بعض الكنس أيضًا كمدارس نهارية للبنين. في إحدى زياراتنا دخلنا قاعة امتلأت بالصبية، بينما كان المعلم العجوز يغط في النوم، في حين أظهرت مدارس أخرى جديّة أكبر لدى التلاميذ الأكبر سنًا. وفي سوق «الحرايرية» زرنا مدرسة للبنات تديرها «الأليانس الإسرائيلية»، تضم نحو 250 طالبة، يُنتقى المتميز منهن لتدريبهن كمعلمات. والمبنى نفسه كان فيما مضى قصرًا عربيًا قديمًا، ولا تزال زخارفه المعمارية - من القيشاني والرخام والجص المحفور - شاهدة على جمال ماضيه.

في بعض الكنس، وخاصة تلك ذات الغرف الجانبية الخاصة، يؤدي أفراد الجماعة نذورًا مرتبطة بالشفاء أو السلامة؛ حيث يظلون ساهرين يتلون المزامير حتى الصباح. ويُخصص في كل كنيس رجل لمراجعة مخطوطات التوراة بعناية كل جمعة، للتأكد من اكتمال النصوص دون سهو أو خطأ كتابي، إذ يُعتبر ذلك خطيئة دينية.

يوم السبت، حضرتُ صلاة الصباح في أحد الكنس. يوجد في الحارة عشرون كنيسًا، ثلاثة عشر منها كبيرة. في القليل منها فقط توجد أروقة مخصصة للنساء، لكن الحضور النسائي كان ضئيلاً للغاية، إذ حضرت ثلاث نسوة مسنات فقط. أما الرجال فكانوا بأعداد كبيرة، معظمهم يرتدون الزي اليهودي التقليدي: قمصان وسراويل بيضاء واسعة، معاطف قصيرة مطرزة بألوان زاهية، وطرابيش حمراء، إلى جانب الشال الأبيض المعروف بـ«الطاليت» الذي يغطون به رؤوسهم وأكتافهم. بينما فضّل آخرون ارتداء الأزياء الأوروبية الحديثة.

مع بداية الالشعائر الدينية في الكنيس، يتردد صدى أصوات الصبية الصغار وهم يتلون آيات من المزامير بنغمة أنفية مميزة. وفي الوسط ترتفع منصة مربعة يقف عليها الحاخامات، بينما يحتل الحاخام الأكبر، وهو

رجل طاعن في السن ذو لحية بيضاء وقسمات وقورة، مكان الصدارة. لم تُخرَج بعد أسفار التوراة من المحراب المغلق والمغطى بستارة مزخرفة، حيث تُحفظ بعناية داخل علب أسطوانية من فضة منقوشة أو خشب محفور.

قبل قراءة نصوص اليوم، يتجول السادن - رجل طويل ملتحٍ يرتدي الزي التقليدي - في أرجاء الكنيس مناديًا بصوت مرتفع ليسأل من يرغب في شرف قراءة التوراة. هذا الامتياز يخضع لمزايدات بين المصلين، ويُمنح في النهاية لصاحب العرض الأعلى. مع ذلك، يبقى لأحفاد عائلتي كوهين ولاوي حق القراءة الأولى والثانية دون مقابل، استنادًا إلى نسبهم من كهنة العهد القديم.

لحظة إخراج التوراة تُعد من أكثر المشاهد تأثيرًا. إذ تُحمل العلبة الفضية بين الحشود التي تتدافع للمسها أو تقبيلها، ثم يرفعها الحاخام عالياً ويعرضها على الجهات الأربع للكنيس في سكون مهيب. مع اقتراب نهاية الصلاة، تغادر النساء الرواق قبل البركة الختامية، وعند الاستفسار عن السبب، تأتي الإجابة ببساطة: «ليس من اللائق أن تبقى النساء.»

أما مظهر النساء والفتيات اليهوديات يوم السبت فيتميز بالأناقة والبهاء. بخلاف النساء في تونس اللواتي يضعن أغطية رأس مدببة عالية، تفضل يهوديات طرابلس منديلًا حريريًا مطرزًا، غالبًا مزدانًا بعملات ذهبية تتدلى حتى الكتفين. يكتمل الزي بقمصان بيضاء ناصعة ذات أكمام واسعة، وسترات قصيرة من المخمل المطرز بألوان زاهية كالأحمر القرمزي أو الأزرق أو البنفسجي، مزينة بخيوط ذهبية أو فضية، إلى جانب تنانير مخططة متعددة الألوان.

تزدان النساء بحُلي بارزة: عقود من العملات الذهبية الكبيرة - كثيرًا ما تكون دوقات نمساوية مزدوجة تبلغ قيمة الواحدة نحو جنيهين إسترلينيين- وأساور ضخمة من الذهب أو الفضة بنقوش دقيقة. أما الخلاخيل فقد اندثرت من زيهن. وتثبت القمصان بدبابيس ذهبية

ضخمة، بينما تتدلى مناديل الرأس بحليات دقيقة على جانبي الوجه. وكثير من الفتيات والنساء الشابات يتمتعن بقدر كبير من الجمال، ويُعد منظر تجمعهن وتبادلهن أطراف الحديث في الأفنية القديمة ذات الجدران الزرقاء، التي تشتهر بها طرابلس، ممتعًا بصريًا.



"هيئة اليهوديات"

الفصل الرابع عشر: عرس يهودي

الاحتفالات المسبقة - تجهيز العروس - الموقف السلبي للعروس - الموسيقيون - موكب العروس - الشعائر - كأس النبيذ - «حظاً سعيداً» للزوجين.

تقام الأعراس اليهودية دائمًا يوم الأربعاء، وقبل أسبوع من ذلك، يكون هناك الكثير من الزيارات وتبادل المجاملات بين عائلتي العروس والعريس. وتقيم الأولى حفل استقبال لجميع صديقاتها، من النساء المتزوجات والفتيات، بينما يفعل العريس المثل مع معارفه. ويقام الحفل في منزل العريس، حيث تذهب العروس لتتزين بكامل زينتها من قبل صديقاتها وقريباتها. وقبل عدة أيام من الزفاف، تخضع لتحضيرات تجميلية كبيرة؛ غسل الشعر وتعطيره بإتقان، صبغ يديها بالحناء، بحيث تبدو أطراف الأصابع سوداء تقريبًا، والغمر الكامل تحت الماء، سبع مرات متتالية، كرمز للتطهير من كل خطيئة، وهي بعض من المقدمات.

لقد دُعينا إلى حفل زفاف، ووصلنا حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، لنجد العديد من الضيوف قد تجمعوا بالفعل. فالنساء جميعهن جالسات في الفناء المربع الكبير، صفوفًا وصفوفًا منهن في فساتين خلابة متعددة الألوان، أو محجبات في «براقعهن» الحريرية البيضاء. وفي المنتصف منصة مرتفعة، مثل العرش، مغطاة بالمخمل القرمزي المطرز بالفضة، ولها مظلة عالية من الحرير للعروسين. وفي الأمام طاولة صغيرة مغطاة بقماش أبيض، تقف على مساحة فارغة مفروشة بالسجاد. هذا هو المكان الذي سيأخذ فيه الحاخامان، وهما اثنان، مكانهما بعد قليل. والرواق في الطابق العلوي مليء بالضيوف الذكور، بينما يجلس الموسيقيون على جانب واحد، مع الدف، والكمان، و»الدربوكة»، وهي الطبلة العربية.

بعد أن دُعيت للذهاب لرؤية العروس، التي كانت تتزين في غرفة في الجزء الخلفي من الرواق، وجدتها جالسة على كرسي، مرتدية ملابسها بالكامل، باستثناء حجاب العروس، ومحاطة بالنساء والفتيات، جميعهن من الصديقات والأقارب. وفستانها من الحرير الأبيض الغني، بأكمام ملونة. ترتدي العديد من الحلي الذهبية الثقيلة، من بينها حزام ضخم يمسك الطيات الواسعة حول خصرها. وهي صغيرة جدًا، تبلغ من العمر ستة عشر عامًا فقط، وهو العمر المعتاد الآن لزواج الفتيات اليهوديات - في السابق كن يتزوجن في سن الرابعة عشرة. وهي سلبية تمامًا لم تحرك عضلة واحدة من وجهها خلال الحفل بأكمله، أو تبدي أدنى علامة اهتمام بالإجراءات. هذا هو فما أعتقد السلوك صحيح للغاية عندهم، يظهر أنها ليست ذات طبيعة تافهة. وترفع إحدى صديقاتها يدها لتثبيت سوار ذهبي ضخم حول معصمها. يسقط مرة أخرى في حجرها كثقل ميت. وتأمرها أخرى بالوقوف حتى تسقط طيات الحجاب الذي يتم تعديله الآن بشكل صحيح. تفعل ذلك، وتقف صامتة بلا حراك، حتى يُطلب منها الجلوس مرة أخرى.

في هذه الأثناء، كان الضيوف يصلون بأعداد والبيت ممتلئ تمامًا. والموسيقيون يعملون بجد، خاصة عازف الدربوكة الذي يجعل صوته مسموعًا جيدًا. بعد وصول اللحظة المناسبة، تُقاد العروس إلى الأمام، بين والدها وحماها، وتسبقها فتاتان صغيرتان متحمستان تحملان شموعًا ضخمة مضاءة.

يمرون عبر الرواق المزدحم، وينزلون الدرج إلى الفناء المكتظ أدناه. هنا تنضم العروس إلى العريس، الذي يبلغ من العمر حوالي سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عامًا، وعلى عكس العروس، يبدي اهتمامًا كبيرًا بجميع الإجراءات، وهو بارز جدًا. ويجلسان معًا على المنصة. ثم يأخذ الأقارب المقربون من كلا الجانبين أماكنهم على كراسي قريبة من الزوجين، وتبدأ الشعائر. ويقف الحاخامان، بعمامتهما الزرقاء الداكنة

وأرديتهما البيضاء، أمام الزوجين السعيدين مباشرةً، بالقرب من طاولة صغيرة عليها توجد مزهرية من الياسمين، وكأس من النبيذ الأحمر، وكأس. بعد أن يتلو الحاخام الأكبر بعض آيات الصلاة، يأخذ المزهرية، ويستنشق عطر الزهور، ويسلمها للعريس، الذي يفعل الشيء نفسه، ثم يرفع حجاب العروس حتى تتمكن هي أيضًا من الاستمتاع بالرائحة الغنية لـ «زهرة الزواج».

بعد المزيد من الصلوات، يُسلّم الخاتم إلى العريس من قبل الحاخام، ليضعه على الإصبع الأول للعروس. وفي هذه الحالة، كان الخاتم للأسف صغيرًا جدًا، ورفض أن يتجاوز المفصل الأول من الإصبع الملطخ بالحناء. أثار ذلك بعض المرح بين الضيوف، لكنها بقيت جامدة كعادتها بينما يُدفع الخاتم بقوة على إصبعها. أخيرًا، يسكب الحاخام كأسًا من النبيذ، يتذوقه، ثم يمرره إلى الزوج، الذي بعد أن يشرب منه بنفسه، يقدمه لزوجته. بهذا ينتهي الحفل. والجميع يحرص على الشرب من نفس الكأس، لجلب الحظ السعيد للزوجين، وبعد ذلك يكسر العريس الكأس برميه على الأرض. وفي حماس اللحظة، تنهار أخت العريس، التي تجلس على المنصة بالقرب منه، مع كرسيها، من المنصة إلى حضن السيدة الجالسة أسفلها مباشرة، مما يسبب للأخيرة مفاجأة مؤلمة. يضحك الجميع باستثناء العروس، التي لا تستطيع الفرح.

الآن تُجلب صوانٍ كبيرة، مكدسة بألواح الكعك، والبسكويت والحلويات، والمرزبان(العبنبر)، والقهوة والكاكاو. والجميع يتحدثون، والموسيقيون في هذه الأثناء يتنافسون مع بعضهم البعض ليروا من سيصدر أعلى ضجيج. وكان الجو حار جداً، ونعتقد أن الوقت قد حان للمغادرة. كان الفناء تغمره الألوان. بعض الفساتين الجميلة، أرجوانية وذهبية، ووردية مطرزة بالأسود، صفراء، بيضاء مخططة بالأرجواني، أنماط زهور على أرضية بيضاء. ثم أغطية الرأس، مناديل حريرية من كل لون يمكن تخيله - وردي فاقع، أرجواني، أزرق، قرمزي، أرجواني، أو

منقوش على أرضية فاتحة. إنه مثل حديقة زهور تُرى من الأعلى.

بصعوبة نشق طريقنا حول الرواق، وننزل الدرج، وعبر الحشد في الأسفل، لنتمنى «حظاً سعيداً» للزوجين السعيدين، اللذين لا يزالان يجلسان في منصة العرش. والعروس جامدة كالعادة، مثل دمية محشوة، ولولا أننا نعرف أنه يفهم ويقدر سلوكها الصحيح، لكان المرء ليشعر بالأسف حقًا على العريس. مع مغادرتنا، وأيدينا ممتلئة بالكعك، تمنينا للزوجين السعادة.

الفصل الخامس عشر: محكمة يهودية

مكتب الحاخام الأكبر – مشاهد من المحكمة – قضية مثيرة للاهتمام - جنازات يهودية - عادات عند القبر - حزن الأرملة العلني - المقبرة.

المحكمة اليهودية مثيرة للاهتمام ومليئة بـ «اللون المحلي». إن مشاهدة إدارة هذه المحكمة، بنفس الطريقة التي كانت عليها منذ قرون، تجعل المرء يدرك المثابرة غير العادية لهذا العرق. وفي طريقنا إلى المحكمة، نمر بمكتب الحاخام الأكبر، حيث يعمل سكرتيره. وهنا يتم التعامل فقط مع مسائل الزواج و«المهر»، ويتم صياغة وتوقيع جميع عقود الزواج اليهودية من هذا المكتب.

نصل إلى المحكمة حوالي الساعة 10:30، حيث ندعى لأخذ مقاعدنا على المقعد بجانب الحاخام الأكبر ومساعده، الحاخام الثاني، الذي يتمثل عمله، إن جاز التعبير، في «دعم» الرئيس. هذا الأخير هو نموذج رائع للقاضي، ذو ملامح راقية وزاهدة، يرتدي الأردية البيضاء والعمامة الزرقاء بتميز كبير ووقار. وعلى طاولة في الجانب الأيمن من الغرفة يجلس الكاتب، بينما على مقاعد حول الجدران يجلس رجال ينتظرون دورهم للدفاع عن قضاياهم، أو ربما يكونون مجرد مراقبين مهتمين بالإجراءات. من وقت لآخر ينضمون إلى المحادثة أو النقاشات، حيث لا يتم بصرامة الالتزام بالصمت في المحكمة.

الجو خانق إلى حد ما والذباب مزعج بشكل واضح، لكن هذه التوافه تُنسى في خضم الاهتمام بمتابعة الإجراءات. والشكاوى في الغالب ذات طابع منزلي، ولكن يتم التعامل أيضًا مع مسائل مثل تقسيم الميراث والممتلكات. وكان الفناء الخارجي مليء بالناس المهتمين بمن هم في الداخل - ونحن ممتنون لأنهم بعيدون عنا.

القضيتان الأوليان اللتان نسمعهما ليستا مثيرتين بشكل خاص،

لكن الثالثة تظهر بوضوح الحالة القديمة للحياة الأسرية اليهودية في طرابلس. هنا لا يزال اليهود يعيشون وفقًا لقانون موسى القديم، الذي يسمح للرجل باتخاذ زوجة ثانية إذا لم تنجب الأولى أطفالًا في نهاية عشر سنوات من الحياة الزوجية.

بينما تُفرغ المحكمة في نهاية قضية تتعلق بتقسيم الممتلكات، يأخذ أفراد عائلة أماكنهم على المقعد أمام الحاخام، رجل مع ثلاث نساء، زوجتيه وأمه.

تجلس الزوجة الأولى، وقد وُضع البرقان على رأسها، في أقصى طرف المقعد، باقية هناك طوال المناقشة دون أن تنطق بكلمة واحدة أو تظهر بأي علامة أنها أكثر من مجرد مراقبة للأمر. وأبعد قليلاً تجلس الزوجة الثانية. لديها وجه مثير للاهتمام، ذكي، لكن من الواضح أنها مشاكسة بعض الشيء، فهناك خطوط غضب حول فمها، وجبينها متجعد في تجعيد من العبوس، بينما من الواضح أنها جاءت مصممة على عدم السماح لأحد بإسكاتها. وبجانبها تجلس الحماة، وهي عامل مهم للغاية في كل من الأسر اليهودية والعربية - مهمة جدًا للسلام والترتيبات المنزلية. إنها سيدة وقورة، بدينة، ترتدي منديلًا حريريًا أرجوانيًا معقودًا حول رأسها وبرقعًا ضخمًا فوق جسدها الممتلئ. لديها سيطرة رائعة على اللغة؛ لا تصمت مرة واحدة خلال العمل إلا لبضع ثوان، ثم فقط من ضيق التنفس. خلفها يجلس الزوج، رجل شاب وسيم المظهر، من الواضح أنه تحت سيطرة والدته تمامًا. يتحدث قليلاً جدًا خلال فترات توقف محادثتها، وعادة ما يقول فقط إن ما تقوله والدته يجب أن يكون صحيحًا.

المشكلة برمتها هي أن الزوجة الثانية لن تترك الزوجة الأولى في سلام. إنها تعايرها باستمرار بحقيقة أنها أنجبت ابنًا، بينما الأولى لم تقدم لسيدها وسيدتها ذرية. بل إنها تتمادى أكثر. وفقًا للحماة، فإنها تضرب الأسرة بأكملها، بما في ذلك الزوج، وهذا ما دفعهم أخيرًا لتقديمها أمام المحكمة للحد من هذا الميل. إذا لم يتم إقناع هذا العنصر المزعج في

المنزل بالتخلي عن هذه العادة السيئة، فيجب على الزوج طلاقها. كانت هي وحماتها تتبادلان النقاش، وكلاهما يتحدثان في نفس الوقت، حيث أن الابن مذعور بشكل واضح. أما الزوجة الأولى فلا تحرك عضلة من وجهها؛ وقد تكون نائمة، لولا أن وميض ابتسامة راضية يمر على ملامحها بين الحين والآخر. أخيرًا انتقمت من السخرية والإهانات التي لا حصر لها التي جلبتها عليها حالة العقم. إنها دراسة نفسية مثيرة للاهتمام. يستمع الحاخام الأكبر في صمت مطلق، ويمرر يده من حين لآخر بتأمل على فمه، وعيناه الثاقبتان وعقله المتمرس يلاحظان كل التفاصيل. يقول الحاخام الثاني من وقت لآخر بضع كلمات له، فيجيبه بحركة رأس موجزة. أخيرًا يتحدث، ومع توقف المرأتين في وقت واحد ندرك مدى الضوضاء التي كانتا تصنعانها. والقرار هو أن يعودوا جميعًا إلى ديارهم ويمنحوا الأمر فرصة أخرى. وإذا استمرت الزوجة الثانية في ضرب بقية أفراد الأسرة، فيجب عليها أن تمثل أمام المحكمة، وعندها سيتم تطليقها.

بينما نسير في الشارع الضيق المؤدي من المحكمة، نمر بمجموعة من النساء. بينهن بطلاتنا الثلاث، جميعهن يناقشن القضية بحماس مع المتعاطفين، ومن نبرة صوت وإيماءات الزوجة الثانية الغاضبة، نتخيل أنه لن يمر وقت طويل قبل أن تظهر مرة أخرى أمام المحكمة.

تسبق الجنازات اليهودية صياح ونواح عظيم وتمزيق للثياب. وتتجمع النساء النادبات المأجورات لإطلاق صرخاتهن العالية الحادة؛ ويخدشن وجوههن ورقابهن، ويضربن صدورهن، ويضربن رؤوسهن بحجارة الأرض. ويوضع الجثمان في النعش في أقرب وقت ممكن بعد تغسيله، ويتم سد الأنف والعينين والفم والأذنين بالتراب، ويوضع الجسد على شبكة مفتوحة تشكل قاع النعش، حتى يلامس الأرض، تحقيقًا حرفيًا للكلمات «إلى التراب تعود».

بعد إنزال النعش، يتجمع المشيعون لرمي أولى مجارف التراب. ثم، يكسرون قطعة من الذهب إلى ألف قطعة صغيرة، ويرمونها إلى الجهات

الأربع للبوصلة - حتى لا تتمكن الأرواح الشريرة، التي تسعى إلى الاستيلاء على قطع الذهب، من الاستيلاء على روح المتوفى. لمدة سبعة أيام بعد ذلك، ويحزن الأقارب. ولا يغتسلون، ولا يغيرون ملابسهم، ويجلسون على الأرض العارية ويأكلون القليل. ومن المعتاد أن تذهب الأرملة مرتين في الأسبوع لمدة عام كامل إلى المقبرة، حيث تبكي وتنتحب بصوت عالٍ على قبر زوجها الميت. وفي بيت العزاء، يجتمع جميع فقراء الطائفة ليتلقوا هبات من الطعام في أربع مناسبات منفصلة بعد الوفاة - وهي اليوم السادس، واليوم الثلاثين، والشهر الخامس والنصف، والشهر الحادي عشر. وتقع المقبرة اليهودية خارج أسوار المدينة في خط مباشر مع الباب الجّديد (البوابة الجديدة)، وهو مدخل «الحارة». وهكذا ينقلون موتاهم مباشرة من الحي إلى مثواهم الأخير، بعد صلاة قصيرة من المزامير والبركة في «صلاد كبير»، الكنيس الكبير. شعب رائع حقًا، هؤلاء اليهود في طرابلس. يحافظون على عاداتهم الدينية والمنزلية التي توارثوها جيلاً بعد جيل لقرون، وهم كرماء للغاية فيما بينهم، ومعظم القوة التجارية في أيديهم ويسيطرون على المواد الغذائية لجميع سكان طرابلس، ومتحدون بروابط الدين، ويشكلون مجتمعًا داخل مجتمع.

الفصل السادس عشر: قصة حياة حقيقية لامرأة زنجية

الأعراق الزنجية في طرابلس الغرب - الفزانيون - ظاهرة غريبة للعرق - السودانيون - الأطباء السحرة - الدانغا.

لقد جاءت اليوم لتروي لي قصة حياتها، هذه المرأة ذات الوجه الحزين. ببرقعها الأحمر والأصفر، تشكل صورة هنا في فنائنا الصغير، ببلاطه الرخامي الأبيض والأسود وجدرانه الخضراء. يشرق وجهها عندما أتحدث إليها، وتبتسم فتظهر أسنانها الرائعة في كمالها. وفي حالة الراحة يكون وجهها جادًا؛ لم يكن لها علاقة كبيرة بالجانب المشرق من الحياة. ولكن عندما تبدأ في الحديث، كيف تتغير! لأنها تتحدث بكل جسدها - الرأس واليدان والذراعان كلها تشارك وهي تتمايل إلى الأمام والخلف، تعيش الماضي من جديد. لقد ترجمت قصتها بأكبر قدر ممكن من الحرفية - اسمع ما لديها لتقوله:

ولدت في بنغازي؛ اسمي ساسية. جاء أبي وأمي من فزان، رحلة شهر على الجمال. وكان لأمي ستة أطفال، لكنهم ماتوا جميعًا. لذلك نذرت أن تلد طفلها السابع امرأة عبرانية، لأنه عندئذ سيُسمح له بالعيش.[1] وهكذا كان، وسارت الأمور على ما يرام. لمدة سبع سنوات، أعطتني المرأة العبرانية كل ملابسي. بعد ذلك الوقت، أعطتني أمي كخادمة لعائلة عربية، لأن أبي كان قد توفي، وكنا فقراء. ضربوني مرات عديدة في السنوات الخمس التي قضيتها معهم. ولكن بعد انتهاء هذه السنوات، وعدتني أمي بالزواج من رجل كان والده بربريًا وأمه زنجية مثلي. تزوجت وأنا في الرابعة عشرة من عمري. في البداية، اعتقدت حماتي عندما أتيت إلى منزلها أنني قد أتيت

1- هذه تنازل كبير من جانب امرأة عربية أوزنجية، إذ لا يوجد حب متبادل بينهما وبين العرق اليهودي.

كخادمة. ولكن عندما علمت أنني زوجة ابنها، مزقت شعرها،[1] وخدشت وجهها، وضربت صدرها، وقالت: «ماذا فعلوا بابني؟» وزوجي، عندما رأى غضب والدته، سلك طريقًا بعيدًا عنا وتركنا. كنت صغيرة جدًا، لم أكن امرأة بعد، وضربوني، ومزقوا شعري، وأعطوني القليل جدًا من الطعام، وجعلوني أقوم بكل أعمال المنزل. بكيت. وطلبت بالطعام، لأنني كنت أتضور جوعًا؛ بدلاً من ذلك، ضربوني بعصا. وكنت قذرة لدرجة أن لا أحد يقترب مني. واستمر هذا الحال لمدة ثلاث سنوات، وكنت أرتدي الخرق، لأن ملابسي الجيدة التي أتيت بها إلى المنزل كانت مخبأة عني. ثم جاءت أخت زوجي أرغيلا، وعندما رأت حالتي كتبت إليه. وأخبرته كم كانت حياتي ثقيلة علي، وأنني أفضل الموت. ترك كل شيء ليعود مسرعاً. وكنت أرعى الأغنام لما رأيته قادماً، لكني اختبأت حتى لا يرى خرقي. لكنه تعرف علي وناداني باسمي، «ساسية! ساسية!» فبكيت فرحاً وناديته، «يا سيدي! يا سيدي!» لقد روعه حالتي القذرة المهملة. أخذ على عجل قربة الماء الكبيرة من ظهر جمله، وغسلت نفسي. وعندما كنت نظيفة نمت، لأني كنت متعبة جداً. أعطني أرغيلا بعض ملابسه لأرتديها. وذبح جدياً وبينما كنت نائمة، شوى اللحم، وأعطاني لأكل وعندما استيقظت. قلت: «دعني أذهب، لأن والدتك ستضربني ولأني لا أعود». وعندما وصلت امه إلى المنزل كانت غاضبة. ورأت اسم أرغيلا على القميص الذي كنت أرتديه.

«من أين سرقت هذا؟»

«إنه لأرغيلا، سيدتي؛ إنه هنا.»

ثم قالت: «هذا كذب!» وضربتني. لكن والد زوجي جاء وقال: «من يبكي بمرارة هكذا؟» فأخبرته بكل شيء وذهبنا معاً إلى أخت زوجي. كان أرغيلا هناك وكان غاضباً بشدة.

غضبًا لأنهم تركوني جائعة ومضروبة. لكنهم قالوا: «إنه الابن الأكبر، وكان يجب أن يتزوج ابنة عم من العائلة، وليس زنجية.» لكن زوجي ثار غضبًا وقال: «أنا تاجر من الإسكندرية. أنا غني. لدي جمال وأغنام. سآخذ

1-علامة على الحزن.

زوجتي وأذهب. ولن تروننا بعد الآن.» عندئذ أسرعت والدته لتأتيني بثوب من الحرير. علقت عليّ الكثير من الحلي، وغسلتني بعطور فاخرة، واهتمت بي كثيرًا. ففرح أرغيلا وبقي معي في منزل والدته. لمدة ثلاثة أشهر كنا سعداء هناك. ثم ذات ليلة قال لي زوجي: «خذي كل ملابسك، وفراشنا، ومتاع بيتنا.» فأخذناها، ووضعناها على ظهور الجمال، وهربنا في الليل إلى درنة. فقد مل زوجي من منزل والدته. وفي درنة كان في بيتنا امرأة عجوز اعتنت بي، وطبخت طعامنا، وألبستني وغسلتني. والآن استرحت، ونضجت عقليًا وجسديًا، وأصبحت امرأة بدأت تفكر.

بقينا أربع سنوات في درنة. ثم ذهبنا إلى وادي، بالقرب من السودان. كانت رحلة طويلة؛ سافرنا لمدة ستة أشهر عبر الصحراء على جمالنا. بعد عام سعيد في وادي، وُلد لنا ابن. أصيب زوجي في كتفه بسهم، أطلقه عربي آخر بالصدفة. فمرض ستة أشهر. وعندما شفي اشترى مئة عبد زنجي، سودانيين، أكثر سواداً مني، وأخذهم ليبيعهم في الإسكندرية. وفي الطريق التقينا بابن عمه، وبعد أن أطعمناه، وأكل معنا، دخل البلدة وأخبر أن هناك من يأتي بمئة عبد ليبيعهم. على الفور جاء صديق راكضاً من البلدة ليخبر زوجي أنه يجب أن يهرب، لأن الشرطة قادمة لاعتقاله. عندئذ تفرق جميع العبيد واختبأوا في حقل قطن. لكن الشرطة أمسكت بزوجي وربطت يديه. قالوا لي: «اذهبي، أنت حرة مع بقية العبيد.» لكني أجبت: «لا، لن أذهب. أنا زوجته. هذا ابننا في ذراعي.» ثم أخذوني مع زوجي إلى الإسكندرية. حُكم عليه بالسجن لمدة عام، لكني تُركت حرة. كانوا سيرسلونني إلى بنغازي، لكنني هربت في الطريق ومع كل المئة عبد لجأنا إلى كهف كبير تحت الأرض. كل يوم كان يأتي صديق ويطعمنا بالطعام في دلاء تُنزل بحبال إلى الكهف. ولكن بعد أيام قليلة ذهبت لأعيش في منزل بعض الأصدقاء. وعندما حان وقت إطلاق سراح زوجي، ذهبت إلى المكان الذي تصل منه الباخرة من بنغازي. واختلطت بحشد العرب الذين نزلوا من القارب، حتى تظن الشرطة أنني أتيت أيضًا من البحر، ثم ذهبت إلى



هيئة الزنوج

السجن. وأُطلق سراح أرغيلا، وعدنا للعيش مع حماتي في الصحراء. ولكن بعد عام، تفككت العائلة. وأخذ كل واحد ممتلكاته ومضى في سبيله، وطُويت الخيام. وكنت متعبة، فقد رأيت أشياء كثيرة وسافرت بعيدًا، وأردت أن أرى أمي.[1] لذا تركت زوجي وذهبت إلى أمي في بنغازي. التي لم

1-وفقًا لقانون الزنوج، الطلاق سهل جدًا. إذا أراد الزوج تطليق زوجته، فإنه يتركها مع جميع ملابسها وأمتعة المنزل، ويخرج ببساطة مع برقعته ملفوفة حوله. إذا أرادت الزوجة ترك الزوج، فإنها تفعل نفس الشيء. بعد ذلك، يتم الفصل في القضية من قبل المحكمة.



زنوج يغسلن الملابس عند البحر

تعرفني، فقد تغيرت كثيرًا في السنوات السبع منذ أن تركتها. وصرخت لها: «أنا ساسية!» لكنها لم تصدقني حتى رأت الندبة على جبهتي، التي كانت لدي منذ طفولتي. بقيت معها عامًا، ثم وجدت لي زوجًا آخر. لكن لم أستطع البقاء معه، فالحياة كانت صعبة. لذلك بعد عشرة أشهر تركته، والقانون أطلق سراحنا. لكن من العار عندنا أن تعيش المرأة وحدها، لذلك تزوجت للمرة الثالثة. الآن أنا معه منذ ستة عشر عامًا، وأنا غير سعيدة، غير سعيدة جدًا. يضربني ولا يعطيني سوى الخرق لأرتديها. كل ما

أكسبه ينفقه على الشرب. لكن لا أستطيع تركه، لأنه لن يطلق سراحي.

يا مسكينة ساسية! وهي تنهي قصتها، يتغير وجهها. لقد كانت كلها حيوية وحركة ونار. الآن، وكأن قناعًا يسقط على وجهها. تجلس بلا حراك، تحدق في خيالها عبر الصحراء. تمتلئ عيناها بالدموع.

أضغط على هدية صغيرة في يديها وهي تنهض على قدميها. ببطء، وحزن وتسحب برقعها حول رأسها، ثم تستدير وتتركني.

هناك عرقان من الدم الزنجي في طرابلس الغرب

(أ)الذين يأتون من فزان (على الحدود الجنوبية لطرابلس الغرب)

(ب)الذين يأتون من السودان.

الفزانيون هم من المولدين (تنتمي ساسية إلى هذا العرق)، وهم خليط بين الزنوج الأصليين الذين هاجروا إلى فزان من المناطق الحارة في وسط إفريقيا وسكان الساحل الشمالي لطرابلس الذين ذهبوا مع القوافل التجارية أيضًا إلى فزان، ووجدوا من المناسب الاستقرار بين أصدقائهم الجدد، الذين استقبلوهم بحفاوة كبيرة، لدرجة أن العديد من العائلات على الساحل الشمالي انتظرت عبثًا عودة أب أو أخ غافل!

الفزانيون جسديًا عرق قوي، متطورون فكريًا، مع ميل واضح نحو الحضارة. قد يكون من المثير للاهتمام ملاحظة ظاهرة غريبة حول هؤلاء الناس. عندما يغادرون فزان ويأتون إلى المدن الشمالية في طرابلس الغرب، تتغير بشرتهم وتتقشر، بسبب، -كما يُعتقد-، تغير الماء، الذي هو أحلى بكثير في الشمال. إنهم خدمًا مخلصين، وغالبًا ما يتم توظيفهم، الرجال ك»قواص» أو مترجمين في مختلف القنصليات، والنساء كخادمات في المنازل. كما أنهن يقمن بكل أعمال الخبز للطبقات الدنيا من العرب.

السودانيون هم العرق الزنجي غير المختلط، ويتزاوجون دائمًا فيما بينهم. يتعرف أفراد القبائل المختلفة على بعضهم البعض من خلال الخطوط الدقيقة الموشومة على الخدين والجبهة، والتي تختلف في العدد والشكل حسب القبيلة. ويحلقون رؤوسهم باستثناء «الشنشة»، وهي

خصلة طويلة من الشعر يتوقعون أن يُسحبوا بها إلى الجنة عند موتهم.

الرجال بشكل عام ذوو قوة هرقلية. تراهم يحملون أحمالاً من شأنها أن تكسر ظهر أي رجل عادي، ولهذا السبب يتم توظيفهم عمومًا كحمالين. كثير منهم يمارسون السحر أو الشعوذة من أنواع مختلفة، ولديهم مهارة غير عادية في ذلك إذا صدق المرء نصف «النتائج» التي تُروى! ثم هم أيضًا مؤدون لـ «الدانقا»، أو الرقص المقنع، الذي يُرى غالبًا في شوارع طرابلس وتونس، والذي لا شك أنه مألوف للمسافرين في الشرق. القناع إبداع غريب، يغطي الرأس والوجه، ويترك شقوقًا للعينين والفم، وينتهي بريشة طويلة أو العديد من الريش الطويلة حسب ذوق الراقص وإمكانياته. ويختلف اللباس أيضًا لنفس الأسباب، أحيانًا يتكون بشكل رئيسي من الخرق، وأحيانًا يكون أكثر بهرجة. وسترة مطرزة بغنى، وقناع رائع، والتنانير أو التنورات الكاملة المثنية البيضاء الناصعة التي تصل إلى الركبتين هي الزي الرسمي الأنيق للمؤدين، الذين يدورون ويدورون مثل الدوامات حتى يصاب المرء بالدوار كمشاهد لدرجة أنه يبدو من المستحيل أن يتمكنوا من البقاء على أقدامهم. كلما صفق المتفرجون أكثر، كلما دار الراقصون بشكل أسرع، حتى يصبح الأمر أشبه برقصة عنكبوتية محمومة - كل هذا على إيقاع الطبول والزمارة، أو مزمار القصب.

اليوم ذهبنا «لزيارة» الحجة قوقو، «الكاهنة العليا» في طرابلس لمجتمع معين أو طائفة من الزنوج والزنجيات السودانيات (بشكل رئيسي الأخيرات) الذين يسمون أنفسهم «البوري». أعضاء هذه الجماعة معرضون لنوع من المرض العصبي الذي يهاجمهم من وقت لآخر، والذي يمكنهم أيضًا حثه، إذا جاز التعبير، عن طريق إثارة أنفسهم إلى حالة من الهيجان، تشبه إلى حد كبير طائفة العيساوية (طائفة عربية)، التي حضرت إحدى جلساتها مرة في القيروان. و«البوري»، عندما يكونون تحت تأثير هذا الهيجان، يحرقون عطورًا قوية معينة تعطي روائح لها تأثير مهدئ على الأعصاب. وتحت إشراف «الحجة قوقو» تُقام «رقصات»

رائعة وغامضة من وقت لآخر من قبل أعضاء الجماعة، بشكل عام في فترة «عيد» من أعيادهم الدينية.

«الحجة قوقو» شخصية رائعة للغاية. لا أحد يعرف كم عمرها لقد جاءت من السودان عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها وكانت في طرابلس منذ ذلك الحين، ولكي نصل إلى منزلها نعبر متاهة كاملة من الشوارع الصغيرة، ونجدها مستلقية على وسائد على أرضية غرفتها، تستقبل نوعًا من الاستقبال من عدة زنجيات يزرنها بعد الظهر. ونلاحظ أنهن يعاملنها جميعًا بالاحترام والتبجيل الكبيرين المستحقين لزعيم. شخصية نحيلة، متوسطة الطول، ترتدي ثوبًا قطنيًا بسيطًا، يظهر تحته بنطال أبيض فضفاض. وجه مليء بالشخصية والطاقة؛ سلوك ينبئ بالاستقلالية والفخر وتحيينا بود كبير، وتُجلب الكراسي على الفور، لأننا لا نحب الجلوس على الأرض، مثل أي شخص آخر في الغرفة. الغرفة رائعة، معلقة بأقمشة ملونة زاهية، زرقاء، أرجوانية، وردية، وحصائر ووسائد ملونة على الأرض، والجدران مزينة بمجموعة رائعة من عقود الخرز، وحلي الصدف، وسلاسل التمائم، وأكياس من الشاش تحتوي على ألعاب غامضة، وهراوات وأدوات - متحف من التحف، معظمها يستخدم في الرقصات، معلق حول أجساد المؤدين. نجري محادثة طويلة ومثيرة للاهتمام، بمساعدة مترجمة، مع القهوة والسجائر. تتحدث الحجة قوقو معنا بالعربية، لكنها من وقت لآخر تتحدث مع صديقاتها الزنجيات بلغة الهوسا، وهي لغة زنجية أصيلة. بعد فترة، نقترح أننا نود كثيرًا رؤية «الكنيسة» حيث تقام الاحتفالات الدينية.

مكان، وحيث يوجد العديد من الآثار الغامضة الأخرى التي يجب رؤيتها. يتبع هذا الطلب صمت مؤلم إلى حد ما. تسعل الحجة قوقو، وتقول إنها مصابة بنزلة برد شديدة لدرجة أنه سيكون من الخطورة عليها أن تخرج من الغرفة. نلتقط التلميح وننتظر وقتنا. ثم أقدم للحجة هدية ل«كنيستها». هذا يصنع العجائب. تنهض، وتدعونا عبر الفناء، وتفتح

بابًا، وترينا غرفة خافتة وغامضة. تعلق على الجدران جميع أنواع الحلي والأشياء، أو تتكدس في سلال كبيرة على الأرض. لا يمكننا إلا أن نخمن بشكل غامض استخدامها؛ فالكثير منها غير مفهوم على الإطلاق. على اليمين تعلق ملاءة بيضاء، تقطع جزءًا من الغرفة. يبدو هذا غريبًا بشكل جذاب لدرجة أن أحد أفراد المجموعة، المليء بالفضول غير المقدس، يتحرك في اتجاهه ليلقي نظرة خاطفة خلفه، لكن الحجي، التي كانت عينها الساهرة تراقب أي تصرف من هذا القبيل، تسحبه بسرعة إلى الوراء. والغرفة بأكملها توحي بشكل غريب بأشياء غير معروفة، وألغاز مختومة على غير المطلعين. لكن الباب يُغلق مرة أخرى، ونودع الحجة قوقو وزائراتها، وهي مجموعة خلابة في برقعاهن الملونة الرائعة، و«الكاهنة» تبرز بملابسها البسيطة في تناقض صارخ، ولكن من الواضح أنها القائدة.

الفصل السابع عشر مخيم بدوي في بو مليانة

استقبال من قبل طبيب الجيش المسؤول - عمل الراهبات الفرنسيسكانيات - مدرسة البنات - صالة ألعاب رياضية للبنين - المستوصف - مكان الاستحمام - فاطمة، الهاربة من المدرسة.

على بعد حوالي عشرين دقيقة بالسيارة خارج طرابلس، في بو مليانة (آبار مليانة)، يوجد مخيم بدوي كبير، تحت سيطرة الحكومة الإيطالية. هنا يوجد ما بين 1,600 و 1,800 بدوي، من بينهم حوالي 200 زنجي، معظمهم من السودانيين. فقد الكثير من هؤلاء الأشخاص رب الأسرة في الحرب الأخيرة. هنا ووفرت الحكومة مأوى وطعامًا لمن لا يستطيعون العمل، إلى جانب الرعاية الطبية، والتعليم للأطفال، وغيرها من مظاهر الحضارة. إن الصرف الصحي والنظافة، التي كانت مجهولة إلى حد كبير لهؤلاء البدو الفقراء الرحل في الصحراء، أصبحت واضحة وجلية.

يستقبلنا عند المدخل جندي لتفقد تصاريحنا، قبل أن يقودنا إلى الضابط المسؤول، الكابتن الدكتور س. الذي رحب بنا بلطف لم نشهده مثله في أي مكان آخر في طرابلس. نرافقه لتفقد المخيم، الذي يُقسم إلى أربعة أقسام سُمِّيت على أسماء مدن إيطالية: روما، ميلانو، تورينو، وباليرمو. أما شوارع الخيام فقد حملت أسماء العائلة المالكة الإيطالية، في حين أُطلق على الساحة المركزية اسم ساحة التقدم (Piazza di Progresso).

الخيام مملوكة للسكان، ودرجات الحرارة داخلها مرتفعة للغاية. عند دخولي إحدى الخيام المنخفضة جدًا، صادفت خمس نساء؛ اثنتان تعملان على النول اليدوي في نسج برقع قطني، بينما تسترخي الثلاث الأخريات وتراقبن العمل، مستعرضات قصصًا متواصلة ذات طابع شعبي. إحدى النساء، بشعرها الطويل المتناثر وعينيها الداكنتين اللافتتين،



أطفال الطبول في مدرسة المنشية

بدأت بطرح أسئلة شخصية بشكل حاد، إلا أن الأخريات أشارن إليها بالصمت بلغة بدوية.

رغم ودهنّ وحرصهن على استمراري في الحديث، كانت الحرارة شديدة، فغادرت الخيمة سريعًا. كل شيء بدا نظيفًا تمامًا، كما هو الحال في بقية المخيم.

يُلاحظ غياب الرجال خلال النهار، إذ يغادرون للعمل في المدينة كحمالين أو في أعمال البناء، ويعودون مساءً. تتحمل النساء مسؤولية جلب إمدادات المياه، غالبًا في مجموعات متتابعة على رؤوسهن، باستخدام علب حالياً من البترول، وهو حل عملي لكنه أقل جمالية مقارنة بالجرار الفخارية التي كانت تتناغم مع ملابسهن التقليدية.

نصل بعد ذلك إلى مدرسة البنات، حيث تُدرّس ثلاث راهبات فرنسيسكانيات لطيفات ورقيات، يرتدين أثوابًا متدفقة. إحدى المعلمات تقدم درسًا على ماكينة الخياطة لمجموعة من الفتيات جالسات خارج المدرسة. يبلغ عدد الطالبات خمس وأربعون فتاة، تتراوح أعمارهن بين ثلاث واثنتي عشرة سنة. يتعلمن جميع أنواع الخياطة إلى جانب الدروس الأكاديمية العادية.

عُرض علينا بعض القطع المطرزة بشكل رائع، وأعمال الخيوط المسحوبة، بالإضافة إلى فساتين قطنية بسيطة عملية للاستخدام اليومي. في غرفة صغيرة مجاورة، رُصت سلال وأغطية أطباق وأطباق وأغطية للرأس والقبعات الكبيرة والحقائب، كلها مصنوعة من أوراق النخيل المنسوجة بشرائط قماشية ملونة بألوان زاهية: القرمزي، الأخضر، الأزرق، الأصفر، وتُزيَّن بباقات صغيرة متناسقة. تم إهداؤنا تذكارًا عبارة عن سلة صغيرة على شكل خلية نحل، بغطاء منسوج متعدد الألوان ومقبض من القماش الأسود، بالإضافة إلى مشط أصفر صغير مزين ببقع حمراء غريبة.في طبق منسوج نلاحظ بعض العملات المعدنية. يخبرنا الطبيب أنه يجمع مجموعة من الميداليات والعملات المعدنية التي

عثر عليها بعد القتال الأخير وكانت بحوزة النساء البدويات. ألتقط واحدة عرضًا، ولدهشتي الشديدة أرى أنها إنجليزية. مكتوب على أحد وجهيها: «إحياءً لذكرى زيارة أمير ويلز للهند، نوفمبر 1875». وعلى الوجه الآخر صورة جانبية للملك الراحل إدوارد، مع عبارة: «ألبرت إدوارد، أمير ويلز، ولد في 9 نوفمبر 1841». ربما كانت بحوزة أحد البحارة الإيطاليين الذين سقطوا في القتال في شارع الشط أو هنا. الآن عادت إلى أيدي إنجليزية، لأن الطبيب أعطاني إياها بلطف.

في الفصل الدراسي، راهبة أخرى تعطي درسًا في الشعر. هناك العديد من الفتيات، صغارًا وكبارًا معًا. بعضهن، شقراوات لدرجة أنهن قد يحسبن كأوروبيات، من الساحل أو الجبال - أما النوع الأغمق، البدوي الحقيقي، فمن الداخل - ثم السودانيات، سوداوات ومبتسمات. ينهض الجميع ونحن ندخل، ويقولون «بون جورنو» وتعني صباح الخير، ويتلون الشعر، ويجيبون على أسئلة في الجغرافيا والتاريخ، وهكذا. كثيرات منهن ذكيات جدًا، بينما يبدو أن الجميع يستمتعون بتعليمهن كثيرًا، وهن مخلصات للراهبات الطيبات، اللواتي يقمن بعمل ممتاز مع هؤلاء اليتيمات الصغيرات الفقيرات. ومن المضحك سماعهن وهن يكررن أسماء أطفال العائلة المالكة في إيطاليا - لمسة لطيفة-. وفي نهاية الفصل الدراسي، ألاحظ شيئًا غريبًا اذ رأيت آلة غريبة المظهر، وقيل لي إنها لصنع الجوارب، فعلا فكرة عملية جداً.

نخرج مرة أخرى إلى أشعة الشمس، عبر الساحة لنرى المستوصف، حيث يتلقى جميع المرضى اهتمام الطبيب كل صباح من السادسة إلى التاسعة - الرجال أولاً، ثم النساء.- إنه نظيف بشكل جميل، ومجهز بأجهزة حديثة، وطاولة عمليات، إلخ.

بعد ذلك نزور الحمام المخصص لبنات المدرسة. وجدناه مرتب جيدًا، بجدران من ألواح خشبية، وأرضية أسمنتية، وأماكن غسيل في كل مكان، بينما يوجد في الزاوية موقد لتسخين الماء لغسل الملابس، إلخ.



هيئة النساء البدويات

أبعد من ذلك يوجد جهاز التطهير، حديث تمامًا. عندما بدأ المخيم لأول مرة، كان هذا ضروريًا للغاية. كانت جميع الملابس توضع في أكياس، وتُلقى في فم المطهر الواسع، وتُترك هناك لساعات. أخيرًا أصبحت النظافة عادة، والآن يأتي الناس، وخاصة النساء، من تلقاء أنفسهم، كلما دعت الحاجة، حاملين أكياسهم. هذا معروف كثيرًا لأي شخص يعرف عادات هذا العرق الغير النظيف.

للطبيب سلطة كاملة على المكان بأكمله، وقد أوصله إلى درجة عالية من الكمال. لا قذارة، لا روائح، لا أمراض، ولا فوضى. إنه مثل مدينة نموذجية صغيرة، تدار على أسس حديثة بهذه الطرق، ومع ذلك تُترك حياة البدو الطبيعية دون مساس. الناس لديهم سوقهم الخاص في المخيم مرة واحدة في الأسبوع، حيث يمكنهم شراء جميع أنواع المؤن.

بعض النساء جميلات للغاية، ومجموعة واحدة عند البئر خلابة للغاية لدرجة أننا لا نستطيع مقاومة التوقف لتصويرها. جميعهن نساء متزوجات، يرتدين «الفافة» أو قبعة من القماش الأحمر، تلتصق بالرأس تحت «البرقع». لا يحببن التصوير، ودائماً ما يكون إقناعهن بالوقوف للتصوير أمراً صعباً، ولكن بعد بعض الضحك والكثير من المحادثات نتمكن من ترتيب الأمر.

الأولاد، مثل الرجال، ذهبوا جميعًا إلى المدينة، حيث يعملون كحمّالين في الأسواق، إلخ. وعند عودتهم في المساء، أول شيء يفعلونه هو الاستحمام في مكان الاستحمام الكبير المخصص لهم. بينما نمضي بين الخيام، تلفت انتباهنا فتاة صغيرة سعيدة جدًا تستمتع بنفسها بالقفز مثل الضفدع حول شجرة. يا للأسف على فاطمة! عين الطبيب تقع عليها في نفس الوقت.

«لماذا أنتِ لستِ في المدرسة يا فاطمة؟»

تلتوي مع ابتسامة هذا هو الجواب على السؤال.

تمامًا كما يفعل أي تلميذ هارب في أي قرية في بلدنا.

«اذهبي الآن مباشرة إلى المدرسة»، وبمشية مكتئبة، وكتف أعلى من الآخر، تنصرف. لكنها تبدأ في القفز كالضفدع على طول الشارع بمجرد أن تعتقد أننا لا نراها. لمسة أخرى من الطبيعة البشرية تجعل العالم كله قريبًا!

يتولى الإمام الإرشاد الديني وكذلك بالطبع عقد الزيجات ومراسم الجنازات والأعياد.

وبينما نحن على وشك المغادرة، تركض فتاة لترينا بفخر كبير محفظة محبوكة صنعتها، بلونها الزاهي كالعادة. تطلب حوالي 3.5 بنس بالعملة الإنجليزية، وتوضع في السلة مع تذكاراتي الأخرى من صباح مثير وممتع للغاية.

الفصل الثامن عشر عبر الواحة إلى شارع الشط والهاني

مقابر القرمانلي - حصن الحميدية - قبور تذكارية - الخنادق - حصن الهاني - المسجد المأساوي - بئر شرقي - مدرسة المنشية.

يوم رائع كهذا يشبه أحد أفضل أيام يوليو أو أغسطس في إنجلترا. سماء زرقاء صافية، تتلاشى إلى أصفر باهت في الأفق. البحر الأبيض المتوسط، في مزاج مبتسم، يلامس الرمال بتموج خافت ونحن نقود سيارتنا فوقها، متجهين شرقًا خارج طرابلس. نحن في طريقنا إلى شارع الشط، لنرى القبور التي أقيمت للرجال الشجعان الذين تحمل الكثير منهم عذابًا طويلًا من التعذيب قبل أن يلقوا حتفهم في القتال اليدوي الذي وقع في تلك الواحة بالذات خلال أكتوبر 1911، قبل عامين فقط. الطرق وعرة جدًا بالرمال العميقة، لكن زوج خيولنا العربية الرمادية الأفضل في طرابلس، كما يؤكد لنا سائقنا بفخر يأخذنا بسهولة. هذا السائق شخصية مميزة. فعندما جاء إلى هنا لأول مرة، لم يكن هناك سوى عشر عربات للإيجار؛ أما الآن، فيخبرنا، مع هزة رأس حزينة، أن هناك 120 عربة يا له من فرق في عامين!

صعود حاد، ونترك الشاطئ، ثم بعد عشر دقائق أخرى من القيادة نصل إلى مقابر القرمانلي. هنا يرقد موتاهم الملكيون بسلام، لا يعرفون شيئًا ولا يهتمون بكل التغييرات التي طرأت على طرابلس منذ أن تركت السلطة أيديهم. لقد اختاروا مكانًا رائعًا، على قمة جرف رملي، يطل على البحر، في سكون منعزل. تتلألأ القباب والجدران بلون أبيض صارخ في الشمس، بينما، باستثناء صبي عربي نائم على درجات القبر في الجانب الظليل، لا يوجد أي شخص في الأفق.

عندما أوقظ النائم بلا رحمة ليتم تصويره، كان مزاجه أفضل بكثير مما كان سيكون مزاجي في ظل نفس الاستفزاز. ومع ذلك، فإن ابتسامة

تقطع شوطًا طويلاً، وقطعة نحاس أو اثنتان تقطعان شوطًا أبعد.

يوجد مرابط على اليسار، والمساحة بينه وبين القبور، وهما اثنان في العدد، مغطاة بالكامل بالقبور، قبور رعاياهم العرب المخلصين. من خلال الفتحة المشبكة أمام كل قبر يمكننا رؤية التوابيت. والحرارة، التي ترتفع من الرمال الحارقة، شديدة لدرجة أننا مضطرون للعودة إلى العربة. ونحن نسير، تذهلنا الكمية الهائلة من الفلفل الأحمر (أو الفلفل الحار) الموضوعة لتجف في الشمس. يكاد يكون لكل منزل واجهة جدار أبيض طويل مغطاة بالكامل بكتلة من اللون القرمزي، مما يجعل المرء يشعر بالحرارة أكثر من أي وقت مضى. بعد أن انعطفنا إلى طريق صغير ضيق، بين جدران عالية من التين الشوكي، اصطدمنا بحفرة هائلة فشل سائقنا في ملاحظتها، في خضم محادثة مثيرة للاهتمام مع فتى حماريبدو أنه أصم. إنها صدمة واضحة، لذلك نستنتج أنه من الأفضل أن نخرج. بعيدًا إلى اليسار، عبر بعض الأراضي المكسورة، يوجد حصن الحميدية القديم: تم تدمير المنارة الخشبية في القصف ومنذ ذلك الحين تم بناء منارة حديثة رائعة من الطوب، بالقرب من الحصن الإسباني القديم «عثمانية»، على الجانب الغربي من الميناء. هناك بعض المدافع التركية المتبقية، ولكن من الحصن نفسه بقيت آثار قليلة.

متجنبًا الحفرة هذه المرة بعناية، يتجه سائقنا إلى اليسار، وسرعان ما نصل إلى الواحة. ولا تزال هناك علامات على القتال الذي وقع في هذا المكان الأخضر والهادئ الآن. فقدت العديد من أشجار النخيل قممها الريشية، بينما تقف المنازل نصف مهدمة أو بها ثقوب كبيرة في الجدران. ليس من الضروري أن أتطرق إلى قصة الخيانة والعقاب؛ بل دعونا نتوقف ونقوم بزيارة إلى النصب التذكاري الذي أقيم لذكرى الفرقة الثالثة والتسعين من المشاة والمدفعية العاشرة، التي بنيت في نفس المكان الذي قاتلوا وسقطوا فيه. هذا هو أول نصب تذكاري نصل إليه، ولكن هناك العديد من النصب الأخرى، بعضها في مجموعات تخليداً لذكرى

الكثيرين من نفس الفوج؛ وبعضها فردي، أقامه الأقارب أو الأصدقاء. هنا يوجد جندي من «البيرساغلييري» يعتني بقبور رفاقه الذين سقطوا. إنه يرينا المكان الذي يشير إلى بئر عميقة أُلقي فيها مئة وخمسون رجلاً بائساً، الأحياء مع الأموات. إنها واحة مأساوية هذه. العشب ينمو طازجًا وأخضر، بينما في أعالي العديد من أشجار النخيل يمكننا رؤية العرب مشغولين بجمع الثمار، وآخرون يقودون مواشيهم إلى منازلهم. هنا وهناك قطعان من الماعز تنتظر الحلب، وبينما نسير يتبعنا الأطفال، يتسولون كالمعتاد . كل هذه الحياة اليومية الهادئة. ولكن على طول الطريق من شارع شط، في تناقض صارخ، توجد هذه القبور، والخط الطويل من الخنادق لا يزال قائمًا تمامًا كما بُني، حتى الهاني، أو هاني كما كان يُعرف في عهد الأتراك. يرينا مسجدًا هنا حيث وُجد هؤلاء البيرساغلييري الشجعان مصلوبين أحياء من قبل العرب بعد تعذيب رهيب. وهناك العديد من القبور الأخرى في الهاني، من بينها قبر واحد للبيرساغلييري من «شعب تراستيفيري» في روما؛ وهذه كلها قريبة من الثكنات الجديدة.

نتجول قليلاً في الواحة، ونجلس تحت شجرة «غازي»، بأوراقها الريشية. وكرات صغيرة من الزهور الصفراء الرقيقة، لمشاهدة عربي عجوز يسقي حديقته. لقد وُصفت آبار الشرق ألف مرة، وقد رأينا نحن أنفسنا الكثير منها، ومع ذلك هناك سحر وجاذبية غريبة في البئر الذي أمامنا. البقرة الصغيرة القوية التي تجاهد صعودًا وهبوطًا على المنحدر الترابي الحاد، والرش المنتظم للمياه بينما يرتفع كيس الجلد الكبير من البئر ويفرغ نفسه في الحوض، والأغنية الرتيبة للعربي - كل شيء هادئ ومنعش للغاية. هكذا كانت الحياة هنا قبل القتال - عندما كان العرب يرعون حدائقهم، وكل شيء كان مزدهرًا. نأمل أن يكون كذلك مرة أخرى؛ فقد أصدر الإيطاليون مرسومًا يدعو جميع المالكين القدامى الذين فروا إلى الداخل للعودة إلى ممتلكاتهم، واعدين بأن تلك المنازل والحدائق التي احتلها الأوروبيون مؤقتًا سيتم إخلاؤها إذا عاد العرب إليها في غضون



قبور القَرَمَنْليّين



مرابط قرب القبور

ثلاث سنوات.

نترك البئر على مضض. الطريق المؤدي إلى طرابلس يأخذنا مرورًا بمسجد رائع على اليسار، جامع فشلوم. ذو قباب عديدة، بقبابه البيضاء اللامعة، وجدرانه ذات الظلال الأرجوانية، يقف محاطًا بالنخيل، لؤلؤة الواحة. وخارج المدينة مباشرة نصل إلى مسجد آخر- جامع ضرار، فريد من نوعه في شكله، مع دعامات تدعم القباب الأربع.

اليوم يحمل لنا ساعة أو ساعتين أخريين من الوعد بالنسبة لنا، حيث دُعينا، مع أصدقاء آخرين، من قبل مقيم المنشية (أو المنطقة الريفية)، الكابتن ف.، لرؤية مدرسته لـ «الكشافة» العرب، إذا جاز للمرء أن يسميهم كذلك، ونتطلع باهتمام شديد إلى التفتيش. بالتأكيد إنها المرة الأولى التي يتم فيها القيام بمثل هذا الشيء مع الأولاد العرب؟ هؤلاء الصغارهم جميعًا من العرب أو الزنوج الذين تيتموا في الحرب، أولاد كانوا سينشؤون حتمًا كمواطنين عديمي الفائدة، إن لم يكن أسوأ. الآن يتم تعليمهم احترام الذات، والانضباط، والمواطنة الصالحة. لقد بدأ المقيم هذا العمل كله بمبادرته الخاصة، إذا جاز التعبير، ولكن من المحتمل أن تتولى الحكومة المدرسة، التي تعد بأن تكون «مشروعًا ناجحًا».

عندما نصل إلى المنشية، خارج المدينة مباشرة عند بداية الواحة، يستقبلنا عند باب الإقامة الكابتن مع بعض من طاقمه. يقودنا أولاً إلى المهاجع، وهما اثنان في العدد - مبانٍ طويلة وواسعة ونظيفة تمامًا. كل شيء يسير على أسس عسكرية، بينما يسود النظام. لأي شخص يعرف الطبيعة العربية السعيدة الحظ، إنه لأمر عجيب أن يتم تدريب الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية واثني عشر أو أربعة عشر عامًا بهذه الطريقة في مثل هذا الوقت القصير - فالمدرسة لم تكن موجودة إلا منذ حوالي تسعة أشهر. في الملعب الجميل، المحاط بحزام من الأشجار من جانبين، مع مباني المدرسة إلى اليسار، نرى الأولاد، 122 في العدد، مصطفين في سريتين. جميعهم يرتدون الزي الكاكي، مع طرابيش قرمزية،

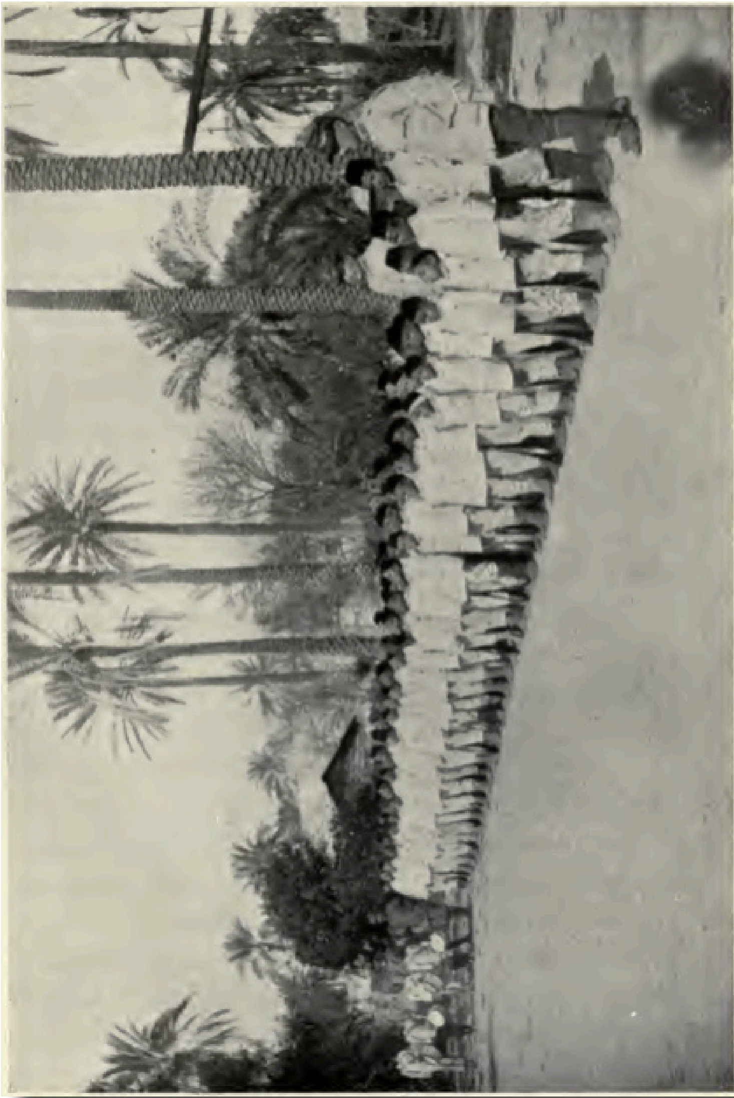
ويبدون أنيقين للغاية. ويتم التدريب العسكري والتمارين العسكرية بشكل لا تشوبه شائبة، تليها مسيرة، بقيادة الفرقة! ويتم استدعاء أحد الأولاد الصغار اللطفاء للإجابة على العديد من الأسئلة في الجغرافيا والحساب. إنه يعرف عاصمة إنجلترا جيدًا! عمل مرهق، هذا الاختبار أمام الكثير من الغرباء، قد يعتقد المرء - لكنه لا يهتم. إنه عريف، وسيكون جنديًا ممتازًا يومًا ما. يتبعه آخر، وتباين صارخ. هذا الأخير يفتقر بشكل واضح إلى الذكاء، ويجيب على كل سؤال يُطرح عليه بشكل خاطئ تمامًا - لكنه يعود إلى الصف سعيدًا تمامًا، فماذا يهم؟ بعد المسيرة، يركض الأولاد ليضعوا ملابس غير رسمية، بدلات فضفاضة بقبعات بيضاء، ويستمتعون بأنفسهم بشكل كبير في صالة الألعاب الرياضية - قضبان متوازية، وحصان القفز، والأراجيح، إلخ. - في الملعب.

بعد هذا الترفيه الممتع، نذهب لنرى مكان الاستحمام الكبير، ذي الأرضية الأسمنتية، مع أماكن غسيل في كل مكان، حيث يستمتع الأولاد بالسباحة كل يوم.

ثم إلى الفصل الدراسي، حيث الجو دافئ بشكل واضح، بينما نستمع إلى الأولاد وهم يغنون الأغاني الوطنية الإيطالية، مصحوبين بالبيانو! حماسهم وحداثة الأمر تجعلنا ننسى الحرارة.

الأولاد العرب يشبهون الأولاد الإنجليز إلى حد كبير عندما يغنون في جوقة؛ يضعون قلوبهم ورئاتهم كلها في العمل.

الوجبة المسائية، المكونة من حساء، مع «باستا» (أشياء ممتازة عندما تذوقتها) وخبز، وتُقدم بدقة عسكرية. يختفي قدران كبيران من الحساء الساخن، يُقدمان في علب تصطف في صفوف لامعة على حوامل، ويوزعهما ضباط الصف الصغار، اثنان في كل مرة، بسرعة ملحوظة. ثم توزع أرغفة كبيرة من الخبز العربي، ومن الممتع مشاهدة الصغار وهم يأكلونها في الهواء الطلق بعد ذلك. تكريماً لزيارتنا، يُسمح لهم بحصص إضافية من الحلويات.



مدرسة المنشية

لذا نتركهم، سعداء كما يمكن للأولاد أن يكونوا، مع كل فرصة تُمنح لهم لحياة مفيدة ومحترمة. دينهم يُعلّمه الإمام (الكاهن) يومياً، الذي يأتي إلى المدرسة لهذا الغرض.

حادثة واحدة، لمسة من الطبيعة تجعل العالم كله قريبًا، تلفت انتباهي، بينما يستمتع الأولاد بأنفسهم في الملعب ونحن نستمتع بفنجان الشاي الترحيبي على مسافة قصيرة منهم. يُنادى على أحد الصغار بالاسم، حيث جاءت أخته لرؤيته. يركض لمقابلتها، بينما تمد ذراعيها لاستقباله، ثم تقبله أولاً على كل خد ثم على يده. إنها مجرد امرأة بدوية فقيرة جاهلة، ترتدي خرقًا خلابة، لكنها تتشبث بأخيها الوحيد هذا، كما تخبرنا، بعاطفة شديدة.

إنه مشهد صغير مؤثر. يتمنى المرء أن يتمكن من فعل شيء لهؤلاء النساء أيضًا. ولكن يجب أن يكون لكل شيء بداية. كل التقدير للرجل الذي، بهدوء وبدون ادعاء، وبمساعدة طاقمه المتحمس من الضباط، بدأ هذا العمل النبيل، متحملًا «عبء الرجل الأبيض».

الفصل التاسع عشر: ضواحي طرابلس: تاجوراء

صور من الطريق - بحيرة الملح - مرابط سيدي نافات - جمل هائج - أطفال عرب ملحاحون - سوق الجمعة - عمروس - يهودية جميلة - شارع الحدادين.

الطرق، كما يخبروننا، وعرة جدًا ومليئة بالرمال العميقة. لكني أرى غيومًا تتجمع في الأفق، وأنا أعلم أنه عندما يبدأ المطر هنا، يستغرق وقتًا ليتوقف، فنحن مصممون، على الرغم من الرمال، على رؤية تاجوراء والعمروس وسوق الجمعة. هذا هو أول يوم منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع بدون أشعة الشمس الساطعة. لكن السماء، على الرغم من أنها غائمة إلى حد ما، لها توهج مضيء، ينعكس مثل سحابة أرجوانية عميقة على البحر. ونسلك نفس طريق شارع الشط، لكن ليس بعيدًا جدًا. تبعد تاجوراء حوالي عشرة أميال شرق طرابلس، وهي مسافة كبيرة جدًا للذهاب والعودة بالسيارة في صباح واحد. لذلك، بما أننا نريد زيارة زنزور بعد الظهر، فقد استأجرنا سيارة، بإطارات محمية خصيصًا ضد تأثير الرمال، لليوم، وننطلق في الساعة 8 صباحًا بحماس.

الأرواح. كلمة هنا عن السيارات في طرابلس. هناك الكثير من العربات العسكرية، وسيارة أو سيارتان خاصتان، وهذه السيارة التي نقودها الآن بحذر عبر الشوارع المزدحمة، وسيارات الأجرة، التي تستأجر فقط داخل المدينة نفسها. قبل الاحتلال الإيطالي، أسمع، من مصدر موثوق، أن السيارة الوحيدة الموجودة في المكان كانت تعتبر «رارا أفيس» لدرجة أنها كانت تُحفظ في مدرسة الفنون - ولم يُسمح لها بالخروج أبدًا، كنز عظيم جدًا!

الطريق وعر بعض الشيء ونحن نقترب من واحة المنشية. أحاول تدوين ملاحظات عن التفاصيل العديدة المثيرة للاهتمام، وهي مهمة شبه



أوقات الجني



إستخراج اللقبي

خارقة؛ الطريقة الوحيدة هي التوقف كلما لفت انتباهي شيء جذاب بشكل خاص. الآن نصل إلى مكان يتفرع منه طريق إلى اليسار إلى العمروس، وطريق آخر أبعد إلى بحيرة الملح. لكننا نستمر في السير مباشرة، متجهين مباشرة إلى تاجوراء، مرورًا بـ «فيا ساكرا»، كما سمي الطريق المأساوي لشارع الشط. على اليمين نلاحظ جامع سوالين. وطوال الوقت نلتقي بأكثر المجموعات الخلابة - جمال وحمير محملة بشكل كبير، نساء بدويات، شيوخ يركبون خيولًا مزينة بغنى، والأطفال لا يحصون، زنوج، موكب من الألوان والحركة. اليوم هو الجمعة، يوم السوق في سوق الجمعة، وهؤلاء هم «الطيور المبكرة» الذين كانوا يشترون «الدودة» الأسبوعية، إذا جاز التعبير. الملابس القرمزية الزاهية للبدو تُحدث بقعًا رائعة من الألوان على خلفية الجدران الرملية العالية التي نمر بينها. إلى اليمين واليسار، كل شيء جديد وأخضر. وتظهر لمحات من آبار العرب، والمقامات، والمنازل البيضاء بين أشجار النخيل. نحن الأشياء الوحيدة خارج الصورة، لكننا لسنا على المسرح، بل مجرد متفرجين.

فجأة نجد أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من الجمال في منتصف الطريق، تتمدد بشكل غير رشيق في كل اتجاه. سائقنا يطلق بوقه مرارًا وتكرارًا، لكنها تسد الطريق حتى نكاد نصطدم بها. ثم يعم الذعر، بينما تترنح بعمى، ويستشيط أحدهم غضبًا. ينهض على رجليه الخلفيتين (وهو أمر لم أره جملًا يحاوله من قبل)، ويفتح فمه الواسع، ويزأر كالأسد بغضب، ثم يأتي مباشرة نحو السيارة. بما أنه ليس في جانبي، فأنا شجاعة جدًا، بينما أقدم نصائح ممتازة لرفيقي حول كيفية التصرف عند مهاجمة جمل. لا يمكننا التقدم لأن الآخرين لا يزالون يسدون الطريق. بوق السيارة يطلق، والجمال تزأر وتتذمر، والعرب يصرخون، مما يسبب جلبة صاخبة، حتى يدفع رجل يمتطي جملًا أكبر بكثير من الآخرين الجمل العنيد بعيدًا. يمكن أن تكون شرسة جدًا في بعض الأحيان، لكن من النادر أن يفقد المرء أعصابه إلى هذا الحد.

الآن بعد أن أصبح الطريق سالكا، نواصل طريقنا مرورًا بحقول الفلفل الأخضر، المحبوب لدى العرب، بينما على اليمين توجد قمائن الجير، والطريق بعدها يقودهم إلى عين زارة، على بعد حوالي خمسة أميال. هذا المكان هو «فندق»، أو محطة توقف تجارية للقوافل.

نحن الآن في سوق الجمعة، لكن بما أننا نعتزم التوقف في طريق العودة، عندما يكون السوق أكثر ازدحامًا، فلا نتوقف في هذه المنطقة، بما في ذلك العمروص، وتسمى الساحل. ونحن نسير على طريق عريض جيد هنا، حيث يوجد رمل أقل بكثير، بين ضفاف عالية تعلوها أشجار التين الشوكي التي لا مفر منها. نمر على اليسار بجامع قسلافي الصغير، بدعائمه الغريبة، ونلاحظ شارعًا ضيقًا يؤدي مباشرة إلى بحيرة الملح. هنا على اليمين توجد «آلة» زيت، كتلة مستديرة كبيرة من الحجر أو الطوب، تشبه إلى حد ما بئرًا، حيث يُعصر الزيت من الزيتون من قبل العرب بطريقة بدائية، فالواحة مليئة بأشجار الزيتون. أبعد من ذلك نتوقف في شرفة الملاحة، كما تسمى المنطقة حول الملاحة أو بحيرة الملح. على اليسار، على قمة تل رملي، يوجد مرابط صغير وحيد. بينما نتسلق هذا التل، يتبعنا عدد من الأطفال العرب الصغار، الذين يبدو أنهم ينبثقون من الأرض من جميع الجوانب. أحدهم، يدعى «رجب»، يقدم لنا الكثير من المعلومات المثيرة للاهتمام. لقد أعطيته كعكة سابقًا، مما جعل «رجب» ودودًا تجاهنا. حتى أنه اقترح أن ندخل المرابط. هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها أحد هذه الأضرحة الصغيرة ذات القبة المستديرة، التي أقيمت للمسلمين .

القديسين، التي تكثر في الأراضي الشرقية. قبر القديس مقابل المدخل كتلة طويلة وضيقة من الحجر المنحوت بخشونة، تشبه إلى حد ما تابوت مومياء. على طول الجزء العلوي من الغطاء توجد قرابين نذرية من التمر، معظمها جاف جدًا، وبعض الخرز، ومصباح صغير، وزهرة أو زهرتان مجففتان. معلقة على حبال، ممتدة على طول الجدران داخل المدخل



في الواحة

مباشرة، وتوجد شرائط من القماش أو الساتان أو المخمل، بجميع ألوان قوس قزح، وهي قرابين نذرية للقديس، «سناسك» كما تسمى بالعربية. لكن «رجب» يعتقد أننا بقينا هناك لفترة كافية. يقول بجدية باللغة الإيطالية: «دعنا نخرج»، وبعد أن قبل القبر وشرائط القماش بتقديس، دون أن يلتفت إلى قذارتها الشديدة، يغلق الباب. حول المرابط توجد قبور - قبور عربية فقيرة جدًا - لا ألواح حجرية ولا حتى خشبية، بل مجرد أوراق كبيرة من التين الشوكي مثبتة في الأرض، أو سلة قديمة مقلوبة رأسًا على عقب لتحديد المكان.

تحتنا إلى اليسار تقع بحيرة الملح - يبلغ طولها حوالي ثلاثة أرباع ميل؛ تبدو صغيرة جدًا مقارنة ببحيرات الملح الكبيرة (الشطوط) بالقرب من توزر (تونس). «رجب» يعرف كل شيء عن هذا أيضًا. يقول إن الرجال في الصيف يأتون ويحملون الملح على ظهور العديد من الجمال إلى البحر، حيث تأخذه القوارب الكبيرة.

حان الوقت الآن للعودة إلى السيارة، التي نجدها محاطة بسحابة كاملة من الصغار العرب، فتيان وفتيات. يتشبثون بظهر السيارة وجوانبها بصخب يصم الآذان. بعد أن رأوني أعطي الكعكة، بالطبع يريد الجميع واحدة. أرمي لهم على عجل نصف دزينة من البسكويت وتنطلق السيارة، تاركة الكثيرين في الغبار، وعدد قليل لا يزالون متشبثين، يستمتعون بالمرح أكثر منا بكثير. لكن السرعة شديدة، ويسقط آخر واحد، تاركًا لنا في سلام مرة أخرى.

نمر ببئر قديم بفم منحوت غريب من الحجر وهو روماني، وكل الباقي عربي. امتداد من أرض رملية قاحلة، وهنا تبدأ منطقة تاجوراء، والتي، مع منطقة الساحل، تضم حوالي 50,000 نسمة. ونحن نسير عبر قرية سيدي بلشهر، نلاحظ خاتم سليمان محفورًا في جدران فندق، حتى لا يدخل أي روح شريرة أو أي شخص مسكون من الشيطان.

في الحقول يمينًا ويسارًا يحرث العرب بنفس الأداة البدائية القديمة

التي استخدموها منذ قرون لا يعلمها إلا الله! هناك بقرة صغيرة تجرها بواسطة حبال مربوطة إلى رسن خشن حول عنقها.

نتوقف لفحص إحدى هذه «المحاريث»، التي تسمى «المخراد». ثم نواصل طريقنا إلى تاجوراء، مركز هذه المنطقة من الواحة، مع مقر إقامة ومدارس للأطفال الإيطاليين والعرب، ومسجد مثير للاهتمام. لقد بُني حوالي عام 1500، بطراز صارم، بواجهة طويلة، تعلوها عشر قباب صغيرة. يأتي الرجل العجوز بمفاتيحه ليفتح لنا الباب. إنه أعمى ويهديه عربي آخر، ليس له إلا عين واحدة. في الداخل نجد نفس النقاء والبساطة في العمارة. هناك ثمانية وأربعون عموداً من الرخام أو الجرانيت الأفريقي، من بينها عمودان جميلان مزخرفان - كلها، للأسف! مبيضة. المنبر عادي للغاية ويتداعى، بينما للمحراب رواق من الرخام الأسود والأبيض. لكن تأثير الضوء من النوافذ الجانبية الذي يسقط على هذه الغابة من الأعمدة، حيث لا يوجد شيء آخر يشتت العين، جميل جداً. الهواء مليء بجزيئات دقيقة من الرمل، تطفو في ضوء الشمس الباهت، وتصنع تأثيرًا رامبرانتيًا على الظلال العميقة. ولم تعد المئذنة موجودة؛ لقد سقطت، لذا ينادي المؤذن للصلاة من على السطح الآن.

هناك أسطورة حول هذا المسجد أيضًا. تقول القصة أنه تم بناؤه من قبل عبيد مسيحيين تحت إشراف عربي. يُقال إن حاكم البلاد في تلك الأيام خطف الابنة الشابة الجميلة لملك مسيحي. تزوجها، ولكن عندما جاء والدها «بألف سفينة» ليطلب عودتها، رُفض طلبه على أساس أنها أصبحت الآن مسلمة وبالتالي لا يمكنها العودة إلى المسيحية. أخيرًا، بعد نقاش طويل، تم التوصل إلى حل وسط، وهو بناء هذا المسجد تخليداً للذكرى. إنه يستحق الزيارة، فمن الناحية المعمارية هو مثير للاهتمام للغاية.

الساعة الآن الحادية عشرة فقط، وهو الوقت الذي يكون فيه سوق الجمعة في أوج نشاطه، ونعود مسرعين. ساحة السوق هنا تستحق

أن تقطع مسافة طويلة لرؤيتها. تخيل ساحة كبيرة، محاطة بالجدران وأشجار النخيل، مع مبانٍ متناثرة هنا وهناك، مكتظة بالعرب والزنوج، واقفين أو جالسين في مجموعات، مع جمالهم وحميرهم كرفاقهم الذين لا ينفصلون، يتفاوضون على شراء الفاكهة والخبز والخضروات واللحوم والدواجن والأغنام وكل المؤن التي يمكن تصورها. هنا مجموعة من فتيات البدو، يبعن التمر، وفي سلال منفصلة، نوى التمر. تستمتع الجمال والحمير بالأخيرة، أفترض كحلوى. كلٌ حسب ذوقه! بطيخ أخضر ضخم بسعر قرشين للواحدة متوفر هنا بالآلاف على ما أعتقد، وكل شخص يبدو وكأنه يحمل واحدة في ذراعيه. أبعد من ذلك، تتكدس الحبوب الذهبية - زاوية مزدحمة -. وعند كل خطوة نكاد نسقط فوق طفل أو جمل، أو ما شابه ذلك؛ من أصعب الأمور أن تشق طريقك عبر هذه الكتلة من الكائنات، خاصة عندما يحاول المرء قصارى جهده لتجنب لمس أي منهم. كثير منهم مكفوفون، فهذا المرض منتشر بكثرة في طرابلس والمناطق المحيطة بها؛ لكن الأطباء الإيطاليين يأخذون هذا الأمر على محمل الجد. ويأملون في مهاجمة جذور المرض للحد من انتشاره.

خلف السوق يوجد بئر ارتوازي، بدأه الأتراك. لم يتمكنوا من العثور على الماء، لكن الإيطاليين كانوا أكثر نجاحًا، حيث اكتشفوه على عمق حوالي 150 قدمًا. و سيكون هذا نعمة كبيرة هنا. في الأفق القريب يمكننا رؤية حشد هائج، في قلبه سيارتنا. على الرغم من مساعدة الشرطة وصيحات «برّاس» النشطة من جميع الجهات، إلا أن الدخول يتطلب جهدًا. لكننا ننجح أخيرًا، ونمر بنجاح عبر الجموع مع حادثة بسيطة واحدة فقط، ليست لنا بل لحمار محمّل، أصابه الذهول من صوت «هوو! هوو!» لدرجة أنه استدار عرضًا وانقلب بأناقة، ولكن دون أي ضرر لنفسه. سيستغرق جمع حمولته بعض الوقت، لأنها تتكون في الغالب من البصل.

على مسافة قصيرة إلى اليمين تقع قرية عمروس اليهودية. الشوارع

ضيقة جدًا وقذرة للغاية؛ وكذلك السكان. لم أر قط الكثير من القذارة المعروضة بشكل فني كما في هذا الركن من الأرض. نتجول في جميع أنحاء القرية. هناك بعض النماذج الجميلة من اليهوديات، لكنهن يرفضن التصوير، وهذا أمر مزعج منهن. فتاة واحدة جميلة حقًا، خلابة جدًا في زيها من تنورة مخططة باللونين الأصفر والأحمر، وقميص أزرق وأبيض، ومنديل رأس حريري أزرق باهت، تغلق باب مسكنها بقوة في وجوهنا، لذلك «نمضي قدمًا».

يعيش جميع السكان البالغ عددهم 900 نسمة تقريبًا من اليهود، ويعيشون على صناعة «المنجل» أو المناجل. شارع هؤلاء الحدادين هو مجرد سلسلة من الصور - الأجزاء الداخلية المظلمة للمصاهر، وهج الفرن، الشرر المتطاير من الحديد الساخن، الوجوه السمراء المنحنية فوق عملها في مجموعات، ملابسهم القذرة ولكن الخلابة من كل لون، النساء المتجمعات عند الأبواب للثرثرة.

لقد سحرنا حيوية الانطباع. في إحدى المصاهر، يتم الحفاظ على منفاخ الفرن يعمل بواسطة رجل أعمى، يعمل بهما بقدميه، بينما يداه مشغولتان بنسج بعض الحبال. من المؤكد أنه لا يضيع وقته. على الجدار المطلي بالأبيض فوق باب أحد المنازل، نلاحظ مجموعة من اللافتات المرسومة بشكل فظ باللونين القرمزي والأزرق: أعلام، طيور، يد فاطمة (التي نألفها كثيرًا هنا وفي تونس)، علامة السمكة، وهكذا دواليك - كلها لجلب الحظ السعيد إلى المنزل. نعبر فناءً لنلقي نظرة على غرفة صغيرة بجانب «المدرسة» - حصائر مفروشة على أرضية رواق مغطى بالقرب من المسجد الصغير. هنا نرى الألواح الخشبية المنقوشة التي يتعلم عليها الأطفال حروفهم. تبدو قذرة مثل كل شيء آخر. ولكن حيث يكون الجميع متشابهين، فماذا يهم؟

كان الجميع في حالة سعادة تامة، فتركناهم ونحن نستقل السيارة، يرافقنا أحد أفضل النماذج من الزنوج الذين رأيناهم على الإطلاق،

والذي جلس برضا وجاذبية ليُلتقطت له الصور. لقد كانت فترة رائعة، ووصلنا إلى فندقنا ونحن نشعر بالجوع، مع شعور بأننا لم نضيع لحظة واحدة من هذا الصباح.



أطفال عرب في المدرسة



في الطريق إلي جنزور

الفصل العشرون: ضواحي طرابلس: زنزور

زنزور- المرور بقرقارش - لاقبي - أصل الاسم - رئاسة زنزور- بو بوكر- المدارس - غموض الصحراء في المساء.

مرة أخرى إلى السيارة والانطلاق مرة أخرى، هذه المرة غربًا خارج طرابلس، لزيارة زنزور، التي تبعد حوالي خمسة عشر ميلًا.

تاركين سوق الخبز خلفنا (يبدو أن كل طريق يؤدي عبر هذا السوق)، نمر بالشارع الغربي على اليسار ونصعد برفق فوق خط السكة الحديد الذي يؤدي، عبر طريق أكثر تعرجًا من الطريق الذي نسلكه، إلى قرقارش وزنزور. أبعد من ذلك نأتي إلى جدار الدفاع الطويل، الذي بُني وقت الحرب، ويمتد حتى شارع الشط. من خلال بوابة قرقارش، مرورًا بقاع وادي الجاف الآن، نجد أنفسنا في ممر ضيق شيده الإيطاليون مؤخرًا بين جدران من الرمال. بينما نصعد إلى قمة التل يمكننا رؤية أشجار النخيل في واحة قرقارش الصغيرة في الأفق. نحن نتبع طريقًا يمتد بالقرب من البحر حتى يقترب من زنزور، حيث يتجه إلى الداخل. الآن نقترب من قرقارش، التي كانت في السابق قرية رومانية، سميت على اسم الإمبراطور كاراكلا. إنها بقعة هادئة صغيرة، بمنازلها البيضاء، وحقولها الخضراء، وأشجار النخيل، زراعية بحتة. تبدو غير مأهولة تمامًا، ولكن بمجرد أن نقترب من المنازل يخرج العرب ليحدقوا فينا. وأبعد إلى اليسار نمر بمحاجر الحجارة، التي يعود تاريخها إلى زمن الرومان، والتي توفر الكثير من الحجر المستخدم لبناء أعمال الميناء الجديدة. وأبعد قليلاً، على تلة رملية، يقف قبر وحيد، أقيم لذكرى الجنود الذين سقطوا في معركة قرقارش.

بينما نمر تحت جسر السكة الحديد إلى الصحراء المفتوحة لا يوجد شيء على مد البصر سوى امتداد طويل من الرمال، هنا وهناك تهب الرياح في خطوط متموجة، ترتفع بين الحين والآخر إلى تلال وتلال. ذلك

الخط الداكن الطويل الذي يرى بشكل خافت في الأفق هو زنزور، التي كانت تحت اسم «أسارية» منتجعًا عصريًا في زمن الرومان للمسؤولين الذين يحتاجون إلى «استراحة علاجية». قد تستحق نفس اللقب الآن، فهي مكان مثالي. بينما نقترب، نمر بحقول غنية تحت الزراعة، خضراء بخضرة لا تنتمي إلا للواحة، حيث تنعش العيون، التي أتعبتها أميال من الرمال الرتيبة، كما لا تنعش في أي مكان آخر هذه البقع الزاهية من الخضرة.

تُروى الواحة بواسطة عدد كبير من القنوات الصغيرة، التي تتفرع في كل اتجاه، ويتم توفير المياه عن طريق الآبار. بفضل هذا الإمداد الممتاز بالمياه، تنتج زنزور وفرة من الحبوب والفواكه، وكذلك الياسمين، زهرة العرب المحبوبة.

يوجد مليون ونصف نخلة في هذه الواحة، التي تتكون في الواقع من سبع واحات صغيرة - منطقة تضم 12,000 نسمة. في الأيام الخوالي، كانت زنزور تصدر كميات هائلة من الزيتون والتمر والتين والبرتقال والرمان واللوز، لكن السكان الآن يكرسون أنفسهم بشكل أساسي للزراعة، كما تشهد على ذلك الحقول الخضراء والمراعي.

كم يجب أن يكون المكان جميلاً في الربيع! لقد قضيت أيامًا طويلة في أوائل أبريل في واحة توزر (تونس) الجميلة عندما كانت أشجار الفاكهة كلها في إزهار، وكتل هائلة من أزهار بيضاء ووردية باهتة في كل مكان، تغطي أكواخ البستانيين الصغيرة، وتطمس جذوع أشجار النخيل، وتغطي الحدائق برداء ناعم من خيوط العنكبوت الخيالية. في هذه الأثناء، كان العرب يتجولون عبر متاهة المسارات يغنون أغاني حبهم التي لا تنتهي، أو يعزفون على أنابيبهم المزدوجة الصغيرة على أنغام أغاني الطيور المخفية في الزهر. كان الهواء مليئًا بالروائح الناعمة والحلوة. الربيع في الواحة - لا يمكن للمرء أن يجد شيئًا أكثر شاعرية وإن بحث في العالم كله.

العرب مغرمون للغاية بشراب يسمى» اللاقبي»، الذي يُستخرج من

أشجار النخيل. يشربونه في كل مكان، من الفلاحين صعودًا، ويقولون لنا إن الكثيرين في زنزور يشربون منه ما يصل إلى ثلاثة أو أربعة كوارتات في اليوم. مظهره يشبه الحليب الممزوج بماء الشعير الرغوي. لقد تذوقته، لكن لا أستطيع أن أقول إنه يمتلك أي جاذبية بالنسبة لي. ومع ذلك، هذا أمر يعود للذوق تمامًا، فقد أخبرني الكثير من الناس أنهم يجدونه لذيذًا. يُصنع من عصارة الشجرة، التي تُجرد في الربيع والصيف من مروحتها الجميلة من الأوراق الريشية. ثم يقوم العربي الرشيق في الأعلى بعمل شقوق عميقة في أعلى الجذع، ويربط مباشرة تحتها جرة، تتدفق إليها طوال الليل السوائل المرغوبة من الشجرة الجريحة. في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس، لتجنب التبخر الذي قد يحدث لولا ذلك، يتسلق مرة أخرى مثل السنجاب، وقدميه على ما يبدو غير حساسين تمامًا للحراشف الصلبة لجذع النخلة، ليأخذ لقيه الثمين. تنتج نخلة واحدة من جالون ونصف إلى جالونين في اليوم لمدة ستة أسابيع متتالية، وبعدها تتوقف العملية، وإلا ستموت الشجرة من فقر الدم، إذا جاز التعبير. ثلاث سنوات من الراحة المطلقة ضرورية للسماح للنخلة باستعادة قوتها السابقة، والتتويج مرة أخرى بتاج أوراقها. ثم تكون جاهزة مرة أخرى لتقديم عصارة حياتها لمن يبحثون عنها. لقد قورن «اللاقبي» بسائل جوز الهند، وربما هناك تشابه عائلي. يصبح أكثر صفاءً وبريقًا ولكن أيضًا أكثر حموضة بعد خمس ساعات من استخراجه، ثم يتخمر بسرعة ويصبح أكثر تسكيرًا. يشربه العرب في جميع مراحله، وتتميز كل مرحلة بالمزيد من التعرج في مشي «المؤمنين». بعد أربع وعشرين ساعة من الاستخراج، من المستحيل شربه غير مخلوط، لذا «يرتبونه» للبيع بإضافة الماء والسكر. إذا أردت أن تشرب اللقبي، فافعل ذلك بسرعة وهو لا يزال طازجًا.

هناك أسطورة مرتبطة بأصل الاسم الذي هو «طرابلسي» جدًا، كما يقولون هنا، لدرجة أنني يجب أن أرويها. يعود تاريخها إلى قرون عديدة، عندما كان الرومان يحكمون شمال إفريقيا. في فيلا جميلة على حدود

زنزور، كانت الابنة الشابة للقيصر مريضة بشكل خطير. لم يبد أن أي شيء يفيدها حتى تم في يوم من الأيام طلب المشورة برهبة من مرابط (قديس)[1] قديم،كان معروفًا بأنه يمتلك العديد من الأسرار الغريبة، والعديد من التعاويذ الغريبة والقوية. كان جوابه قصيرًا ومباشرًا: «اذهبوا إلى المنشية (الريف) واضغطوا السائل الذي يجري في عروق النخلة الخشبية.» تم ذلك. وشربت الفتاة كوبين. وعند الكوب الثالث صرخت للحشد غير المصدق من المتفرجين، «لقبية! لَقْبية!» («أشعر بتحسن! أشعر بتحسن!») شُفيت، وأصبح اللاقبي

أكثر صفاءً وبريقًا ولكن أيضًا أكثر حموضة بعد خمس ساعات من استخراجه، ثم يتخمر بسرعة ويصبح أكثر تسكيرًا. يشربه العرب في جميع مراحله، وتتميز كل مرحلة بالمزيد من التعرج في مشي «المؤمنين». بعد أربع وعشرين ساعة من الاستخراج، من المستحيل شربه غير مخلوط، لذا «يرتبونه» للبيع بإضافة الماء والسكر. إذا أردت أن تشرب اللقبي، فافعل ذلك بسرعة وهو لا يزال طازجًا.

هناك أسطورة مرتبطة بأصل الاسم الذي هو «طرابلسي» جدًا، كما يقولون هنا، لدرجة أنني يجب أن أرويها. يعود تاريخها إلى قرون عديدة، عندما كان الرومان يحكمون شمال إفريقيا. في فيلا جميلة على حدود زنزور، كانت الابنة الشابة لقيصر مريضة بشكل خطير. لم يبد أن أي شيء يفيدها حتى تم في يوم من الأيام طلب المشورة برهبة من مرابط (قديس) قديم،[1] كان معروفًا بأنه يمتلك العديد من الأسرار الغريبة، والعديد من التعاويذ الغريبة والقوية. كان جوابه قصيرًا ومباشرًا: «اذهبوا إلى المنشية (الريف) واضغطوا السائل الذي يجري في عروق النخلة الخشبية.» تم ذلك.

شربت الفتاة كوبين. وعند الكوب الثالث صرخت للحشد غير المصدق من المتفرجين، «لقبية! لَقْبية!» («أشعر بتحسن! أشعر بتحسن!») شُفيت، وأصبح اللقبي مشروبًا شعبيًا وصحيًا على ما يبدو بين العرب منذ

1-كلمة «مرابط» تطلق على القديس وعلى ضريحه على حد سواء.

ذلك اليوم.

تتوقف سيارتنا عند مدخل مقر الإقامة في زنزور، حيث يستقبلنا المقيم، الملازم س.، ومجموعة من المسؤولين، من بينهم عدة شيوخ يرتدون أردية زرقاء وبيضاء متدفقة. بعد كوب شاي ترحيبي ثلاثي مع مضيفنا اللطيف، نؤخذ لزيارة المدرسة، مرورًا بصالة الألعاب الرياضية في الطريق. المدرسة مثيرة للاهتمام للغاية؛ نرى الأطفال العرب الصغار يقرأون ويكتبون بالإيطالية، ويقومون بعمل جيد على السبورة. اثنان منهم يلقيان قصائد ويقدمان لكل منا باقة من الزهور. في إحدى الغرف، يدرس عدد من الأولاد الصغار جدًا القرآن؛ شخص صغير جدًا يخرج من الصف من تلقاء نفسه ليحييني، ونحن نصافح بجدية. ونحن ننزل الدرج، نحاول أن نجعل الزنجي الصغير الذي من واجبه أن يكون حارسًا بعد الظهر يتحدث إلينا، لكن لديه إحساسًا شديدًا بالواجب! في الساحة الكبيرة أمام مقر الإقامة، وهي جميلة بشكل رائع عند غروب الشمس، وتحيط بها أشجار النخيل، تقف شجرة توت ضخمة، فخر المنطقة.

نُقدَّم إلى بو بكر، الخادم الزنجي للمدير (مساعد المقيم). بو بكر شخصية، وأكبر رجل في المنطقة - يبلغ طوله حوالي سبعة أقدام وهو عريض بالنسبة لذلك. إنه بالتأكيد يصنع صورة وهو يقف ممسكًا بحصان المدير بسرجه المخملي القرمزي. يخبرنا أن لديه زوجتين، وسيكون لديه اثنتان أخريان إذا كان يستطيع تحمل تكلفتهما، لكن محفظته لن تسمح بذلك.

نود أن نبقى في الحديقة بالقرب من الساحة، لمشاهدة غروب الشمس الرائع، لكن الوقت يتأخر وسرعان ما سيحل الظلام، لذلك نأخذ مقاعدنا في السيارة، ومع الكثير من الشكر والوداع، نبدأ رحلة العودة إلى طرابلس. كم تغير الطريق! بدلاً من الرتابة الواضحة للصحراء الرملية، التي تتعب العينين في ضوء النهار، نشعر وكأننا ننزلق عبر أرض الأحلام اللامتناهية. هناك ضباب فضي خفيف فوق الصحراء، يتلألأ من خلاله القمر بشكل شاحب، بينما يسود الصمت في كل مكان، صمت لا ينتهي



المختصر المفيد في زنزور
آبوبكر واصغر فتى كشافة

على ما يبدو، ننجرف إليه. بعيدًا على اليمين، مقابل السماء الباهتة، تقف هنا وهناك نخلة وحيدة - فلا توجد علامات على الحياة ولا أي شيء يكسر خط الكثبان الرملية. كل شيء غامض بشكل غريب، وغير شبيه بأي شيء آخر. مع ازدياد كثافة الضباب، يصبح المسارفوق الرمال بالكاد مرئيًا، حتى يتوقف سائقنا في النهاية، حائرًا، قائلاً إننا على الطريق الخطأ. قليلاً إلى اليسار، ثم ننزلق مرة أخرى، لأن هذا الجزء من الطريق أملس وواسع. الآن نبدأ في مقابلة مجموعات من العرب العائدين من طرابلس مع جمالهم، ظلال شبحية تلوح في الأفق كبيرة وغامضة في الضوء غير المؤكد. رجل واحد يغني

أغنية رتيبة على ثلاث نغمات مع إيقاع نواح طويل، يطفو إلينا من أرض الأحلام التي خلفنا، والتي نمر منها الآن، لأن أضواء طرابلس أمامنا مباشرة.

ببطء نقود عبر شارع العزيزية المزدحم بمقاهيه المكتظة حتى الفيضان، مروراً بالميناء بأضواءه المتلألئة الكثيرة - إلى الواقع مرة أخرى.



مكان السوق في جنزور

الفصل الحادي والعشرون لمحة عن المناطق النائية: غريان

رحلة بالقطار- العزيزية - الشاحنة - بوغيلان - طريق الألبيني الرائع- الهضبة الأولى - زراعة الهضبة الثانية - الزيتون - لوح حجري روماني- غريان - السكان - سكان الكهوف - الإدارة - المدرسة - زيارة إلى سجن نساء سكان الكهوف - تجربة سيدة زائرة - زيارتي وشرب الشاي مع عائلة من سكان الكهوف - المخيم الليبي - المقبرة الألمانية - زراعة الفاكهة - آثار رومانية.

للتوغل أي مسافة في المناطق النائية لطرابلس، من الضروري الحصول على إذن من الحاكم، حيث أن البلاد بأكملها لا تزال تحت السيطرة العسكرية. وقد مُنح لنا هذا الإذن بلطف شديد، مما منحنا تجربة رائعة، لأن المناطق الداخلية كانت حتى الآن أرضًا مغلقة عمليًا.

يغادر قطار طرابلس إلى العزيزية في الساعة 7 صباحًا، مما يعني انطلاقة مبكرة من الفندق، حيث تقع المحطة في أقصى طرف المدينة، باتجاه المنشية.

لم تشرق الشمس بعد ونحن نسير بالسيارة - فقط عدد قليل من العرب النائمين حولنا، ملفوفين في برقعاهم، فالجو بارد جداً، الساعة 6:30 صباحاً، والناس في طرابلس ليسوا من المستيقظين باكراً. نصل إلى المحطة في الوقت المناسب، وهذا من حسن حظنا، حيث تمتلئ كل المساحة المتاحة بعد دقائق قليلة. العربات مريحة جداً، لكن المساحة محدودة. نتشارك مقصورات الدرجة الأولى مع العديد من الضباط الإيطاليين ومجموعة من الشيوخ العرب.

إنه صباح مجيد، الشمس تشرق في سماء صافية، بينما البحر الأبيض المتوسط، الممتد على يميننا، يبتسم لنا اليوم فقط. تاركين واحة

قرجي على يسارنا، وزنزور بعيداً على اليمين، محطتنا الأولى في مشياستة، حيث يلتقي قطارنا بالقطار العائد من العزيزية. يوجد هنا حصن صغير به أسلاك شائكة، من بقايا الحرب، وهو الآن مهجور. نسافر عبر أميال وأميال من الصحراء، نتوقف عند واحة صواني بن آدم الصغيرة. ثم مرة أخرى عبر أميال من الكثبان الرملية، تعلوها خصلات من العشب الخشن، وتتخللها هنا وهناك حصن صغير. يسير القطار بسلاسة شديدة، إن لم يكن سريعاً جداً، حيث توجد عدة توقفات طويلة لأخذ البضائع من جميع الأنواع في المحطات المختلفة على طول الطريق. نصل إلى العزيزية الساعة 10:30، بعد أن قطعنا مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً. من المفترض أن يصل القطار في الساعة 9:30، لكن ذلك يعتمد إلى حد كبير على كمية البضائع التي سيتم تحميلها.

العزيزية، كما سماها الأتراك، أو «الكدوة»، كما يسميها العرب، هي حقًا في طور التكوين في الوقت الحاضر، حيث ينشغل الإيطاليون بإعادة بناء القلعة والمباني الأخرى، التي تركها الأتراك في حالة من القذارة والإهمال لا توصف. القلعة، أو الإقامة، ومسجد، والثكنات الجديدة التي تم الانتهاء منها للتو هي الأهم. يبلغ عدد السكان حوالي 14,000 نسمة. هناك ساحة كبيرة تمتلئ في أيام السوق، مرتين في الأسبوع، بحشود من العرب المنتمين إلى قبيلة ورشفانة، الذين يأتون من المناطق المحيطة.

يستقبلنا المقيم بلطف، ولدينا الوقت الكافي لإلقاء نظرة على الثكنات الجديدة والتجول حول الساحة قبل أن تكون العربة، وهي عربة بريد، التي تعمل يوميًا ولا تنتظر أحدًا، جاهزة، ويجب أن نأخذ مقاعدنا. هذه العربات وسائقوها رائعون جدًا. العربات من صنع شركة فيات، قوية جدًا، لمقاومة تآكل الطرق الجديدة، مع عجلات خلفية مزدوجة. ينتمي السائقون إلى كتيبة السيارات الإيطالية، وقد تدربوا في المدارس الفنية في روما وتورينو. هؤلاء الرجال يؤدون أعاجيب في القيادة، وجرأتهم وشجاعتهم مذهلة. على بعد حوالي عشرة أميال من العزيزية، نمر ببئر



مكان السوق في العزيزية

عربي قديم، بعمق 180 قدمًا، مع ثمانية خزانات للري، بئر (بير ليلى)، الوحيد في كل السهل المحيط. جعلت الأمطار الغزيرة في الأسبوع الماضي الطريق عبر السهل وعرًا إلى حد ما، لكن السائق يتجنب كل المطبات غير الضرورية ويصنع طريقًا جديدًا حيثما يكون القديم غير سالك. لديّ مكان الشرف في المقعد الأمامي بجانب السائق، لذلك أمضيت وقتًا أسهل من أولئك الذين في الخلف. تهب الريح بقوة وبرودة - الهواء جبلي منعش، يضرب وجوهنا مباشرة؛ وأمامنا تقع الصحراء، مع جبال الجبل (أو الهضبة العالية) في المنطقة التي تليها. عند سفح السلسلة الجبلية الأولى، نتوقف لبضع دقائق في بوغيلان، حيث تخيم سرية من العساكر (جنود صوماليون) من بلد الصومال. ويوجد هنا بئر وخزان كبير. ثم نبدأ في صعود الطريق الجبلي الرائع الذي بناه جنود الألبيني، ويمتد حتى نالوت، على بعد 160 ميلاً. هذا الطريق، وهو انتصار في مهارة الهندسة، تم بناؤه في ستة أشهر. الجزء الأول، حتى غريان، تم بناؤه في ثلاثة أشهر، وهو طريق جبلي مثالي، ناعم ومستوٍ مثل أي طريق في أوروبا. نصعد ونرتفع، في صعود طويل وثابت، حيث تقع غريان على ارتفاع يزيد عن 1900 قدم فوق مستوى السهل. كل منعطف في الطريق يمنحنا لمحة عن البانوراما أسفلنا التي تمتد بلا نهاية إلى الأفق. نحن نمر عبر أقدم تكوين صخري، الإيوسين، طبقات متوازية، عبر أول طريق تم إنشاؤه عبر هذه الجبال العابسة، والتي أصبحت الآن لأول مرة تحت سيطرة قوة حضارية. تمامًا عندما نصل الهضبة الأولى، نمر بقافلة صغيرة من الجمال المحملة، يواجه سائقوها بعض الصعوبة في إقناعها بعدم الانتحار بالقفز من حافة الهاوية بينما نمر ببطء. البلد في هذه الهضبة، سيدي محرز كما يطلق عليها، ومغطى بأشجار زيتون جميلة جدًا، ومزروعة بالكامل تقريبًا، معظمه الشعير. وفي كل مكان توجد منازل عربية صغيرة، ومقامات هنا وهناك، وحقول من النرجس البري - منطقة مزدهرة وهادئة.

تجرى تجارب في الزراعة في جميع أنحاء البلاد من قبل الحكومة

الإيطالية، حيث تم توزيع 800 قنطار من الحبوب بين العرب، على أن يتم سدادها بعد الحصاد القادم.

الآن نصل إلى الهضبة الثانية، حيث توجد مرة أخرى أشجار زيتون تنمو بشكل جيد. النساء العربيات مشغولات بجمع الزيتون؛ أخريات يمررن وفروع على رؤوسهن. نعبر طريق القوافل القديم، وهو تناقض صارخ مع هذا الطريق الحديث الرائع، الذي هو في أفضل حالاته هنا، مع امتدادات طويلة وناعمة ومنعطفات حادة، يأخذها الكاميون (الشاحنة) بسرعة جيدة. نتوقف لدقيقة لتفقد لوح حجري قديم على جانب الطريق، عليه نقش روماني لسبتيموس سيفيروس، اكتشفه الجنود هنا عند بناء الطريق. جنباً إلى جنب توجد لوحة حديثة، عليها نقش للألبيني تخليداً لعملهم العظيم. وهكذا يعيد التاريخ نفسه.

نحن نقترب من غريان، موطن التروغلوديت. هنا، على تل، يوجد المسجد، ونمر ببعض بيوت الكهوف التي نتوق لتفقدها. أخيرًا، تتوقف الشاحنة أمام مقر الإقامة، حيث كان المقيم وطاقمه من الضباط ينتظرون في الخارج لاستقبالنا. لم نكن نأسف على النزول ومد أرجلنا بعد رحلة استمرت ستة وثلاثين ميلاً، على الرغم من كونها مثيرة للاهتمام.

تنقسم منطقة غريان إلى أربعة أجزاء، بني غريفة، بني داود، القواسم، والعربان، وتتولى إدارتها المقيم الإيطالي، يساعده نائب مقيم إيطالي، وقائمقام عربي، ومديران عربيان.

يبلغ عدد سكان «المدينة الخفية» من التروغلوديت حوالي 7,000 نسمة، بينما يبلغ عدد سكان المنطقة بأكملها 42,000 نسمة. هناك قبيلتان (عشائر) من اليهود (تتكون كل منهما من عشرين عائلة)، ويتألف بقية السكان من العرب والبربر، مع بعض الزنوج.

إلى يمين غريان يقع جبل تكّوت، على ارتفاع 2,460 قدمًا فوق مستوى سطح البحر، حيث يمكن مشاهدة منظر بانورامي رائع. وكنا متشوقين جدًا لتسلق هذه القمة على ظهور البغال، لكن الوقت كان ضيقًا جدًا.



بالقرب من نبع عين الترك، يوجد فرن للجيربناه الجنود، فالإيطاليون قد حافظوا على تلك الهبة العظيمة من الرومان—فجنودهم ليسوا جنودًا فحسب، بل كل شيء آخر أيضًا. إنهم يبنون المنازل، ويصنعون طوبهم بأنفسهم وقدمررنا بعدة مصانع للطوب حيث كان الجنود يعملون بجد)، ويبنون النوافير، ويحفرون الآبار، ويخبزون الخبز. في غريان، تُزوَّد الحامية الإيطالية بأكملها بخبز ممتاز يخبزه الجنود. يجري إصلاح «القصر» القديم، أو القلعة، وإعادة بنائه إلى حد كبير، حيث وُجد في حالة مروعة من القذارة والإهمال. دعانا الجنرال القائد بلطف شديد إلى مكتبه، لكنه، كما أوضح، لا يوجد في الوقت الحاضر ما يمكن رؤيته في القلعة نفسها بسبب الإصلاحات الجارية. ومع ذلك، رأينا برقية مثيرة للاهتمام للغاية وصلت للتو، تبلغ بنبأ استسلام فزان، مع خسائر قليلة جداً في الجانب الإيطالي. هناك منظر رائع من الشرفة يطل على السهل الكبير في الأسفل.

ثم رأينا مقر الإقامة الجديد الذي يبنيه الجنود، وزرنا المدرسة. هنا، باستثناء ثلاثة أولاد إيطاليين صغار، جميع التلاميذ من العرب، الذين يتعلمون التحدث والكتابة والقراءة بالإيطالية بسرعة لا تصدق. ليس هذا فقط: بل يظهرون أيضًا رغبة قليلة في التحدث بالعربية بمجرد أن يتقنوا الإيطالية الكافية، بينما من المضحك أن نرى كم هم أسرع بكثير في الحساب الإيطالي من الحساب بالعربية. ابن القائمقام تلميذ، وهو ذكي جدًا. بطبيعة الحال، لدينا رغبة شديدة في زيارة سكان الكهوف (التروغلوديت)، أولئك السكان الغامضون تحت الأرض، الذين يجعلون غريان مكانًا فريدًا تقريبًا من حيث الأهمية. إنهم شعب مسالم للغاية، وقد قيل لنا أنه لا توجد جرائم تقريبًا. مجتمع بلا خطيئة على ما يبدو- وبالتأكيد مجتمع هادئ بشكل ملحوظ، على الرغم من أن من يدري ما قد يدور في الخفاء!

نصل إلى «البيوت» على بعد مسافة قصيرة من مقر الإقامة، إلى يسار

ويمين الطريق. عمقها حوالي 40 إلى 45 قدمًا. تخيل فتحة ضخمة، مثل فم حفرة عظيمة. في الأسفل يوجد فناء «البيت»، أحيانًا بأرضية من الإسمنت، ولكن غالبًا من التراب، مدكوك ومستوٍ. تفتح من هذا الفناء الغرف، وهي باردة في الصيف ودافئة في الشتاء، عملية من وجهة النظر هذه. العائلات الأكثر ثراءً لديها غرفة استقبال واحدة فوق الأرض، على ارتفاع 6 أو 7 أقدام. ننزل جميعًا في ممر مظلم يشبه النفق، إلى أسفل، إلى ظلام دامس، حتى نخرج إلى فناء إحدى المساكن. هذا هو سجن النساء، ولكن لا يوجد سجناء الآن، فقط الحارس العربي مع زوجته وعائلته. إلى اليسار غرفة النساء، التي دُعيت إليها. إنها مظلمة جدًا، لأنه بالطبع لا توجد نوافذ. الغرفة هي في الحقيقة كهف محفور في الأرض، والضوء الوحيد يأتي من المدخل. عندما تعتاد عيناي على الظلام، أستطيع أن أرى السقف فوق رأسي مباشرة، يكاد يلامسني. صفوف من علب الفاكهة المحفوظة، وعلب السردين، القديمة الموز والذرة الهندية وكل ما هو معلق عبره كزينة، «فانتازيا» من الديكور. حول الجدران توجد علب أخرى، وصناديق من صنع محلي، وسلاسل من الأصداف، وبعض الحلي السودانية، وأغطية أطباق، وأواني ومقالي. حُفرت عدة ثقوب في جوانب الجدران لتكون بمثابة أوعية للملابس أو المواد الغذائية، وهناك مقعدان قديمان - وإلا فالغرفة خالية من الأثاث. توجد غرف أخرى، كلها متشابهة إلى حد كبير، كلها تفتح على الفناء.

منذ بعض الوقت عندما زارت سيدة إيطالية هذا السجن، طلبت منها السجينات، اللواتي لم يرين امرأة أوروبية من قبل، خلع قبعتها. بمجرد أن فعلت ذلك، في غمضة عين، تم سحب جميع دبابيس شعرها، لتحتفظ بها النساء كتذكارات، اللواتي نظرن إليها كأثمن تذكار.

لقد فات الأوان لزيارة أي من سكان الكهوف الآخرين هذا المساء، لكن صباح اليوم التالي يحمل تجربة مثيرة للاهتمام. نتجول، دون مرافقة من أي مسؤولين، ونجلس لنرسم مدخل منزل غامض المظهر. لا يوجد

أحد في الأفق - كل شيء هادئ كالقبر - لكننا لم نجلس هناك دقيقتين قبل أن تظهر شخصية بيضاء من باطن الأرض، تليها أخرى وأخرى - مثل الأرانب من جحورها. يظهر عشرات الأطفال كالسحر؛ من المستحيل تحديد من أي جانب أو من أي كهف عميق أتوا. في خمس دقائق

نحن محاطون بحشد غريب، يحدقون في وجوهنا، يفحصون ملابسنا، يراقبون كل حركة بأقصى درجات الاهتمام. حتى الآن لا يوجد نساء باستثناء زوجين من السودانيات. ثم، تظهر امرأة فجأة على قمة تل قريب، مرسومة على خلفية السماء، بشكل مذهل. ترتدي برقعاً من القرمزي والأصفر، ووجهها مغطى، بينما تتقدم نحوي بخطوات غير واثقة، فهؤلاء النساء ساكنات الكهوف لا يمارسن الرياضة كثيراً فوق سطح الأرض. الأغنى منهن، من عائلات أفضل، يولدن في هذه المساكن المعتمة، ولا يغادرنها أبداً حتى يتم حملهن لدفنهن.

تأتي المرأة مباشرة إلي، ونجري محادثة بالإشارات. نصبح صديقتين حميمتين على الفور. تمزق قرن ظبي كانت ترتديه بين جميع مجوهراتها الأخرى وتعطيه لي لجلب الحظ السعيد. أقدم لها في المقابل زجاجة عطر صغيرة من حقيبتي، ثم تدعوني إلى منزلها. نترك الحشد، ونذهب نحن الاثنتان معًا، وهي تترنح أمامي، فأنا أكثر ثباتًا على الأرض هنا منها. ولكن عندما نغوص في مدخل النفق المظلم إلى منزلها، تصبح خطواتها المترددة ثابتة ومطردة، بينما أتحسس وأتعثر في طريقي خلفها كعمياء. مرتاحة جدًا لوجود نفسي في الفناء، أنا على وشك الدخول إلى إحدى الفتحات عندما تمسك مضيفتي بحبل معلق على جانب الجدار، تسحب به نفسها بسرعة

تم أخذنا في نزهة طويلة حول المكان بأكمله، أولاً لزيارة المخيم الليبي، وهو أرض جميلة وخلابة مؤطرة بأشجار الزيتون، حيث تتدرب القوات المحلية، ثم إلى المقبرة الألمانية الصغيرة، حيث توجد قبور طبيبين من الصليب الأحمر ومساعد في المستوصف توفوا في غريان أثناء الحرب.

نمشي عبر حقول أشجار الفاكهة، ففي هذه المنطقة تنمو جميع أنواع الفواكه - التفاح، والخوخ، والمشمش، والعنب، واللوز. إنها بلد رائع للزراعة، وله مستقبل زراعي غني. نرى بعض الآثار الرومانية مع نقش على كتلة حجرية واحدة، بالكاد ممحوة، اكتشفها الجنود عند بناء المقر الجديد. بالطبع، البلد كله مزروع حرفيًا بالآثار الرومانية؛ يمكن لعالم آثار أن يقضي سنوات في رؤيتها وكتابتها.



الفصل الثاني والعشرون: لمحة عن المناطق الداخلية: يفرن

رحلة بالشاحنة إلى يفرن - طبيعة البلاد-الاصابعة-البربر-بداية الهضبة العالية-يفرن-منظر بانورامي رائع-إدارة المكان-تقسيم المنطقة-السكان-هذا قدرنا-فضول العرب عند رؤية امرأة أوروبية لأول مرة-رحلة بالسيارة إلى رومية-رفقة عند البئر-العودة إلى غريان-العودة إلى طرابلس مرة أخرى.

مغادرين بلدة سكان الكهوف خلفنا، نسير عبر منطقة مزروعة جيدًا- فدادين وفدادين من الأراضي المخصصة لأشجار التين والزيتون. نمر بالقرية اليهودية، تغرنة، والمقبرة العربية. على اليمين توجد قلعة البربر القديمة في تغرنة، وهي الآن في حالة خراب. بعد قرية الاصابعة الصغيرة، ينعطف الطريق الذي كان يتجه جنوبًا الآن غربًا، بينما نرى على اليسار منظرًا واسعًا، يمتد عبر الصحراء والسهل، إلى السلاسل الجبلية. امتداد من أشجار الزيتون، ثم سهل قاحل—لا مزيد من الأشجار، بل مساحات جرداء متموجة مع خصلات من حشيش الحلفاء، ولكن من نوعية رديئة. طيور صغيرة لا حصر لها تنطلق من الرمل والعشب من كل جانب، هي العلامات الوحيدة للحياة في هذه البقعة القاحلة من الأرض. الريح هنا باردة وقارصة، بينما تغير طابع البلاد - قاسية ووحشية تبدو بعد الحقول الزراعية المبتسمة التي تركناها خلفنا. الآن نصل إلى الاصابعة، على بعد حوالي عشرين ميلاً من غريان، والتي كانت في مارس 1913 مسرحًا لمعركة بين الإيطاليين والباروني، الذي قاد قبائل الجبل. هو سليل[1] الزعيم المتمرد الشهير غومة، الذي حارب الأتراك عندما استولوا على طرابلس الغرب في عام 1835. كان لدى العرب مثل في تلك الأيام، «أحضر لي رأس غومة»، للتعبير عن استحالة الشيء، فقد كان شخصًا مراوغًا ولا يمكن

1- لا توجد صلة قرابة بين سليمان باشا الباروني وغومة المحمودي

كبحه. ترك الباروني البلاد بعد هزيمته على يد الإيطاليين، ويُعتقد أنه في مكان ما في سوريا، يكتب مذكراته. يجب أن تكون قراءة مثيرة للاهتمام. توجد قلعة رومانية قديمة في الاصابعة، على يمين الطريق، وخلفها، مخبأً بين التلال، يقف قصر عربي قديم. النساء العربيات مشغولات بقطع الأغصان الجافة لأشجار العناب الصغيرة، والعشب، الذي يجمعنه كوقود لفصل الشتاء. ترعى الماشية والأغنام بسلام - مشهد ريفي هادئ في نفس المكان الذي دارت فيه المعركة قبل بضعة أشهر فقط. أبعد من ذلك يوجد مخيم بدوي صغير من الأكواخ، حماية ضئيلة من هذه الريح القارصة. ثم نمر عبر بئر السدرة، وهي قرية أكثر أهمية، ولكنها في حالة متداعية، بجدران وأسقف تنهار في كل اتجاه. بعد ذلك على اليسار نمر بالطريق المؤدي إلى مزدة، حيث يخبروننا بوجود أروع الآثار الرومانية.

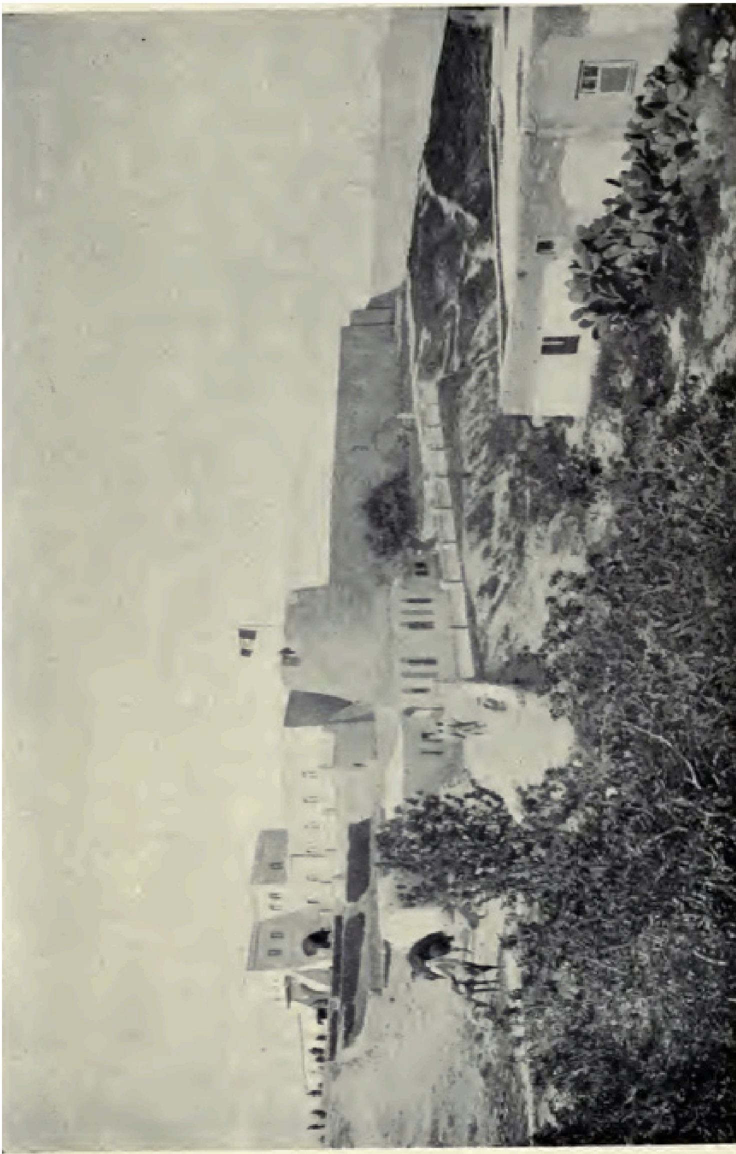
الآن نحن نسير عبر بلد مزروع يشبه غريان أكثر، على الرغم من أنه أكثر وعورة وصلابة في طابعه. الطريق خلاب، به العديد من المنعطفات، وكلما تقدمنا أكثر، أصبحت الزراعة أندر. وتزداد الرياح قوة وبرودة بينما نرتفع باتجاه يفرن. الأرض صخرية، لكن الشاحنة في مسارها الذي لا يرحم تهتز وتصطدم بجميع العقبات. على اليمين يوجد قاع وادٍ جاف (مجرى مائي) يلتقي بنا مجراه الصخري مرة أخرى. وتطير طيور رمادية وبيضاء صغيرة في أسراب، وتهبط، وترتفع مرة أخرى وأثناء مرورنا، تُترك خلفنا قافلة من الجمال محملة بأسرة حديدية. وعلى اليمين، يظهر منظر القواليش مع قلعة بربرية قديمة، إذ نقترب من المنطقة التي يكثر فيها وجود البربر هم السكان الأصليون لشمال إفريقيا، ويزداد وجودهم كلما اتجهنا غربًا، إذ إن العرب عند غزوهم طرابلس الغرب في القرن السابع دفعوا البربر أمام تقدمهم. ومع ذلك، بقي عدد كبير منهم في المنطقة، خاصة في الجزء الجنوبي الغربي بعيدًا عن السواحل، ومن الطبيعي أن يحملوا مشاعر عداء تجاه العرب. لغتهم تختلف عن العربية ولم تُدرس بشكل كافٍ من الناحية الإثنولوجية. وهم مسلمون، إلا أنهم لا يتبعون

أيًا من المذاهب الأربعة التقليدية، ولا يوجد لديهم إمام رسمي في دينهم.

باختصار، يوصفون أحيانًا بأنهم «منحرفون» عن النمط العربي السائد. يتميزون ببشرة فاتحة، وغالبًا ما يكون شعرهم شقرًا، في حين تختلف ملامح وجوههم عن العرب بشكل واضح، إذ تتسم وجوههم بالاتساع والجباه البارزة، وأحد أبرز الخصائص المميزة هو الأنف الصغير، الغائر بعمق بين العينين.

بعد مغادرة القواليش، نمر بالطريق المؤدي إلى ككلة، حيث تبدأ هضبة يفرن العالية. ويلتف الطريق ويتعرج مثل مسار جبلي في جبال الألب. ويمتد السهل أمامنا وخلفنا وحولنا، بني وأخضر داكن، بينما تقف الجبال الأرجوانية العميقة في تناقض قوي مع السماء الذهبية، لأن الشمس تغرب في صفاء بديع. وبعيدًا إلى اليسار توجد قلعة قديمة، قصر قلعة، بينما توجد قرى أقرب، تشبه الحرباء، تأخذ نفس لون الجبال، ويصعب تمييزها. يصبح غروب الشمس أكثر كثافة في اللون، ويتحول إلى برتقالي وقرمزي، ويضيء بأشعته مرابطًا صغيرًا جميلًا مبنيًا تحت شجرة زيتون عظيمة. إنها بالفعل رحلة رائعة، لأن طابع البلاد يتغير باستمرار ويقدم لنا مفاجآت لا تنتهي، خاصة عندما أتذكر أن هذه نفسها كانت البلاد: بابًا مغلقًا حتى فتحه الإيطاليون أمام الحضارة والتقدم.

مجموعة من المنازل القديمة الخلابة تشير إلى الموقع الرائع لـ «قلعة»، ثم تبدأ منحدرًا حادًا، مثل طريق في جبال الدولوميت. تأخذ الشاحنة المنعطفات والالتواءات مثل طائر ونحن ننحدر، مرورًا بتلال رملية، مع واحات صغيرة من أشجار النخيل على يسارنا. ثم صعودًا مرة أخرى، صعودًا حادًا إلى الجزء الأول من يفرن، حيث يوجد على اليمين قصر موسى بك، القائمقام. مرة أخرى نزولًا، ثم انحناءة أخيرة صعودًا، حتى تتوقف الشاحنة عند باب المقر. نحن في يفرن، استقبلنا المقيم وطاقمه من الضباط، ولا يسعني إلا أن أشعر بقليل من البهجة عندما يخبرونني أنني أول امرأة أوروبية تزور يفرن على الإطلاق. ويا له من انطباع رائع يتركه



قصر يفرن

المكان في المرء! نقف على التل الذي تسيطر منه القلعة والمقر على المنطقة المحيطة، وننظر إلى منظر بانورامي أعتقد أنه لا مثيل له. على مد البصر يمتد السهل الواسع الأرجواني المتموج، يندمج في الأفق مع ألوان الأوبال التي تركتها الشمس الغاربة خلفها. على اليسار، مثل المنحدرات التي تحرس بحرًا متراجعًا، توجد الجبال القديمة، صفراء شاحبة وخضراء داكنة، ملونة بظلال بنفسجية، تحمل عليها بصمة قرون قديمة من الزمن. على اليمين، إلى الجنوب، تقع تاقربوست، قرية مبنية على تل صخري، خلابة ورائعة في ضوء المساء الخافت. طابع هذا البلد بأكمله قوي وقاس، وحتى لو كان قاسيًا وصعبًا. تمتص الجبال المنازل والناس. بالكاد يمكن تمييز العرب وهم يشقون طريقهم على طول المسارات الجبلية الضيقة؛ وملابسهم بنفس لون هذه الطبقات من الصخور. بضع خطوات، وبينما تراقبهم يبتلعهم جانب الجبل، بينما بيوتهم ليست سوى أجزاء من الصخور نفسها.

استولى الإيطاليون على يفرن في 27 مارس 1913، بعد معركة الأصابعة. وجدوا البلاد كلها في حالة فقر وخراب رهيبة، ومن المدهش أن نرى كيف اكتسبوا في مثل هذا الوقت القصير تعاطف السكان. ويعمل جنبًا إلى جنب مع المقيم الإيطالي وطاقمه الإداريون المحليون، وهم القائمقام أو المقيم العربي لقضاء يفرن، وأربعة مديرين أو نواب مقيمين لمديريات القلعة، وككلة، والرياينة، وهو نفس نظام الإدارة بالضبط الذي يسري في جميع أنحاء طرابلس الغرب، والذي ينتج عنه نتائج ممتازة. تنقسم منطقة يفرن إلى عشر مناطق،[1] والمقر أو المركز الرئيسي هو في «الظهرة». وهنا أيضًا توجد القلعة التركية القديمة، التي تحولت الآن إلى حصن وثكنات حديثة. يبلغ عدد السكان حوالي 14,000 نسمة، ثلثاهم من العرب وثلثهم من البربر. ويوجد أيضًا حوالي 1,000 يهودي، يسيطرون

1-ظهرة تاقربوست(جنوب)، المشوشيين، قراديين، معانيين، قصبات (شمال) شقارنة، قصرقصبة، تاغمة، تازمرايت.

على كل تجارة المكان تقريبًا.

ستتألف المحكمة الجديدة للإدارة في المستقبل، والتي ستبدأ عملها قريبًا، من المفوض والمقيم وأربعة قضاة آخرين، جميعهم إيطاليون، للسكان الإيطاليين، بينما للسكان الأصليين إيطاليان واثنان من السكان الأصليين.

توجد مدرسة للأطفال العرب، لكن المعلم الإيطالي سيصل لاحقًا، حيث لا تزال يفرن قيد الإنشاء، وقد تم إنجاز الكثير ولا يزال هناك الكثير مما يجب عمله. لقد تولى الإيطاليون مهمة هرقلية في تنظيف هذه الإسطبلات الأوجية. لا شيء يمكن أن يجعل المرء يدرك هذا بشكل أعمق من زيارة مثل التي قمنا بها للتو إلى هذا الموقع المتقدم من يفرن، الذي وُضع الآن على قدميه في طريق الحضارة والتقدم، بعد قرون من الإهمال والقمع. إن معرفة الحماس والشجاعة الذي يتم به هذا العمل يجب أن يثير فينا نحن الإنجليز كأمة أكبر قدر من التعاطف والإعجاب، أليس هذا هو العمل الذي وضعناه على عاتقنا أينما رُفع علمنا؟

أخبرني ضابط أنه في أحد الأيام عندما كان واقفًا يتحدث إلى عربي على سفح التل الذي يواجه المحيط الشاسع من السهول والصحراء، التفت العربي ليحدق في الفضاء الصامت الشاسع. ثم قال: «هذا بحرنا». وبعد وقفة طويلة أضاف: «هذا قدرنا».

الجزء الأكثر رومانسية في يفرن هو تاغربست، حيث توجد أطلال قلعة رومانية قديمة، كانت تستخدم في تلك الأيام كمخزن أيضًا. الجدران مقسمة إلى حجرات صغيرة، مثل خلية نحل، حيث كان كل رجل يخزن ممتلكاته. وقلعة الاصابعة ذات بناء مماثل.

مسجد يفرن من الطراز التركي الحديث، بني قبل حوالي سبعين عامًا. زرت منزل المترجم العربي الملحق بالمقر. كان ضابطًا في الجيش التركي ولكنه استسلم للإيطاليين وقت الاستيلاء على يفرن. يتحدث الإيطالية بطلاقة وهو من النوع الحديث جدًا من العرب. زوجته، فتاة جميلة تبلغ من العمر

حوالي عشرين عامًا، تعد لي قهوة تركية ممتازة ويبدو أنها مسرورة جدًا بزيارتي. بعد الغداء نخرج جميعًا إلى الشرفة المطلة على ساحة السوق، التي كانت مزدحمة بالعرب كما كانت في يوم السوق. من المضحك جدًا أن نرى فضولهم الشديد تجاهي، أول امرأة أوروبية يرونها على الإطلاق. يتجمهرون بالقرب من جدار الشرفة، ويحدقون فيّ باهتمام ثابت ومستمر وهو أمر محرج بعض الشيء. لاحقًا ننزل بينهم لالتقاط بعض الصور وسط اهتمام كبير ومحادثات ودية.

تستغرق رحلة بالسيارة إلى «الرومية» جزءًا من الصباح. إنها واحة جميلة، تبعد حوالي عشرة أميال عن يفرن، على امتداد الطريق الممتاز المؤدي إلى نالوت، الذي أنشأه الإيطاليون مؤخرًا، والذي يلتف على جانب الجبل. الوادي على اليمين مليء بأنواع مختلفة من أشجار النخيل، التي تشكل مقدمة خلابة للغاية للجبال الوعرة في الخلفية. في الرومية يوجد نبع طبيعي رائع يوفر المياه لكامل يفرن. بدأ الأتراك في بناء قناة من النبع إلى يفرن، لكنهم لم يحصلوا على ضغط كافٍ، لذلك سيعيد الإيطاليون بناءها من جديد. في الوقت الحاضر، و يتم نقل المياه كل يوم بواسطة عربات تجرها البغال محملة ببراميل المياه، وهو أمر ممتاز.

نزلنا من الشاحنة، وننحدر نزولاً إلى وادي الواحة ونصل إلى مشهد خلاب ساحر: ونجد رفقة عند البئر! مجموعة صغيرة من اليهوديات يغسلن الملابس في الوادي، يرتدين «برقعات» زرقاء وأرجوانية، محاطات بالنخيل والخضرة. يرحبن بنا بأكثر الطرق ودية لكنهن يعترضن على تصويرهن، على الرغم من أنهن يخضعن في النهاية عندما يقال لهن إن الصورة لي. يوجد الكثير من أشجار الزيتون هنا، والكثير من الأراضي مزروعة؛ لكن القرية في حالة خراب رومانسي، على الأقل نصف المنازل في حالة خراب، وهو ما لا يبدو أنه يزعج أي شخص.

نغادر يفرن في وقت مبكر من بعد الظهر، مودعين بحزن مضيفينا الكرام واللطفاء، وفي رحلة العودة بالسيارة التي تستغرق أربع ساعات

ونصف إلى غريان، حيث رتبنا للمبيت مرة أخرى قبل التوجه إلى طرابلس. إنها رحلة باردة، لكننا نسير بسرعة وبأسلوب رائع، بفضل سائقنا من الدرجة الأولى.

في الطريق نمر بالعديد من الصقور الجميلة جدًا، التي تبحث عن الحجل والطيور الأخرى التي تكثر في السهل في هذا الجزء من البلاد. ترتفع أسراب كبيرة من هذه الطيور عدة مرات، وينجح أحد الضباط معنا، بدون صعوبة، في اصطياد واحدة - عينة كبيرة وجميلة، في حالة ممتازة.

ومع غروب الشمس أصبح الهواء قارس البرودة، فاستقبلنا بحرارة وسرور دفء مقرّ الإقامة. في صباح اليوم التالي واصلنا طريقنا نحو العزيزية، حيث تناولنا الغداء، ثم استقللنا القطار إلى طرابلس، التي وصلناها في السادسة مساءً وسط مشهد غروب بديع - خاتمة مناسبة لرحلة اتسمت من بدايتها إلى نهايتها بأقصى درجات المتعة والاهتمام والجِدة.



بانوراما يفرن



مع مضيفنا في يفرن

الفصل الثالث والعشرون: البربر[1]

تاريخ موجز للبربر-أصل الاسم-مسألة الدين-عصور الوندال والبيزنطيين-أولى الحملات العربية-اعتناق البربر للإسلام-قبائل البربر-اللهجة-الشخصية-البربر في نواحي يفرن-التلوين-الحياة الأسرية-عادة غريبة في الحياة الزوجية-الوضع المنزلي للمرأة-الضيافة وآداب السلوك-اللباس-المسجد و»التجمّعات-أماكن العزاب-الطوارق-عادات وتقاليد هذه القبيلة-أصل كلمة «طوارق».

البلاد الممتدة بين الحدود الغربية لطرابلس ومصر، وعلى الرغم من اتساعها الشاسع، لا توجد فيها سوى منطقة محدودة نسبيًا يتحدث أهلها اللغة البربرية. يمكن العثور على هذه اللغة القديمة لشمال إفريقيا في نقاط متفرقة على نطاق واسع في هذه المقاطعة. ومع ذلك، نعلم من الوثائق المصرية أنه منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان الليبيون، وهم السكان الأصليون لشمال إفريقيا الذين أُطلق عليهم فيما بعد اسم البربر،[2] يتمتعون بحضارة وصناعات متقدمة. كان لديهم ملوك وراثيون وأبرموا تحالفات مع شعوب الجزر الواقعة قبالة سواحل شمال إفريقيا.

يرى بعض المؤرخين أن أصل كلمة «البربر» يعود إلى اللاتينية «Barbari»، إلا أن الرأي المرجح أنها مستمدة من كلمة «برابرة»، وهي تشير إلى عرق أصلي من حوض النيل. في الواقع، كان «البرابرة» هم أول سكان شمال إفريقيا الذين واجههم العرب عند غزوهم لهذه البلاد. يعطي المؤرخ هيرودوت وصفًا لليبيين يتطابق تمامًا مع مظهر قبائل البربر اليوم، كما أن بعض العادات التي وصفها هيرودوت ما تزال شائعة بينهم.

1-(المترجم)هذ الفصل بالكامل مقتبس من كتب ودراسات عن بلاد المغرب الاقصى ولا علاقة له بأمازيغ ليبيا.

2-انظر فيكتور بيكيه، حضارات شمال أفريقيا، 1909. باريس: أرمان كولان.

في القرن التاسع قبل الميلاد استقر الكنعانيون في طرابلس الغرب، وأسّسوا مدنًا مثل أويا، ولبدة، وصبراتة. ثم استولى سكان صور على الساحل في القرن الثامن قبل الميلاد، وأسسوا قرطاج، التي أصبحت فيما بعد عاصمة الإمبراطورية الرومانية في إفريقيا. في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ظهرت مملكة نوميديا البربرية، التي قاومت لفترة طويلة قوة قرطاج وروما. يذكر التاريخ أسماء ماسينيسا ويوغورطا. كان النوميديون، مثل أحفادهم القبايل اليوم، شعبًا رعويًا وزراعيًا في أوقات السلم، رغم امتلاكهم للجيش.

تُظهر المصادر أن القبائل البربرية كانت شجاعة ومستعدة دائمًا للقتال، وقد سببت الكثير من المتاعب للفرنسيين في الجزائر. بعد وفاة يوبا، آخر ملوك نوميديا، في القرن الأول قبل الميلاد، أصبحت نوميديا مقاطعة رومانية. بدءًا من القرن الرابع الميلادي، اختفت الحضارة الرومانية تدريجيًا من شمال إفريقيا، وعادت الحياة الطبيعية للسكان الأصليين. خلال هذه الفترة، كان هناك الكثير من عدم اليقين بشأن الدين الذي اعتنقته القبائل البربرية، حيث يذكر بعض الكتاب أن العديد منها اعتنق المسيحية، لكن بأشكال انشقاقية، أبرزها بدعة الدوناتيّين أتباع أسقف أوراس في الجزائر، الذين اتخذوا حركتهم شكلًا سياسيًا ضد الرومان. في نفس الفترة ظهر انشقاق آريوس في قورينائية. في عام 368 م، قاد زعيم بربري يُدعى غيلدون 70,000 محارب لتوجيه الضربة الأخيرة للحكم الروماني، ومن ثم حصلت إفريقيا على فترة من الهدوء، واستأنفت القبائل حياتها الرعوية، بينما بقي دينها كما هو.

في عام 415 م ظهر الوندال بقيادة جنسريك في شمال إفريقيا، واستقبلهم السكان الأصليون استقبالًا جيدًا، واستمر حكمهم حتى القرن السادس الميلادي. عند الاحتلال البيزنطي، كان الوضع مضطربًا بسبب صراعات داخلية رهيبة، وفي القرن السابع استعادت القبائل البربرية استقلالها في جميع المناطق. يقول المؤرخ العربي ابن خلدون: «كان

البربر في البلاد أقوياء بأعدادهم ومواردهم، يطيعون ملوكهم وزعماءهم وأمرائهم، وعاشوا محميين من هجمات طغيان الرومان والفرنجة التي كانت لتجعلهم يخضعون».

في بداية القرن السابع الميلادي بدأت الدعوة النبوية لمحمد، وبعد وفاته تولى أبو بكر الخلافة، فبدأت أولى الحملات العربية التي كانت سياسية ودينية في الوقت ذاته، واستمرت حتى القرن الحادي عشر الميلادي. نجح الحماس الديني للغزاة العرب في تحويل السكان إلى الإسلام، ولا يزال البربر يعتنقون هذا الدين حتى اليوم. ومع ذلك، فإنهم لا يتبعون بدقة المذهب «المالكي» الأرثوذكسي الذي يشيع في شمال إفريقيا، إذ تم إدخال المذهب «الحنفي» إلى طرابلس الغرب من قبل الأتراك. يُظهر البربر ميلاً للاستقلال الديني كما في زمن آريوس، وقد وصف ضابط من يفرن البربر بأنهم «بروتستانت الإسلام»، ولم يُتهموا أبدًا بعدم الولاء للنبي.

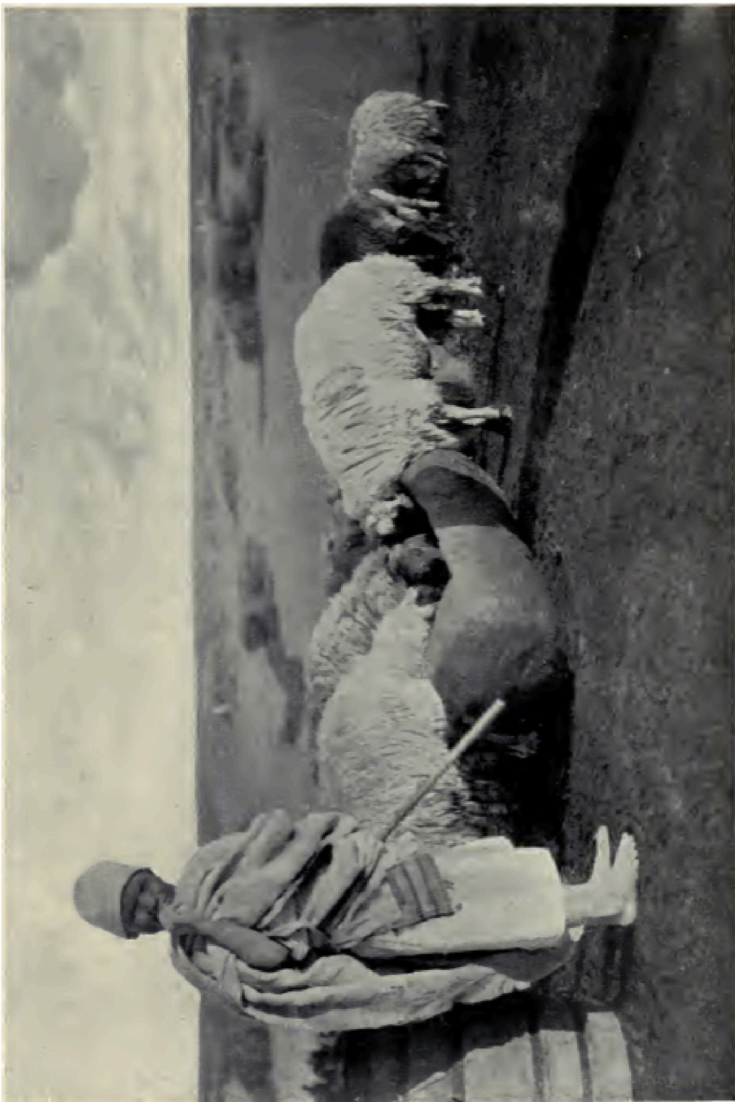
وفقًا لما يذكر أنتوني ويلكن،[1] يختلف البربر عن العرب من حيث الانفتاح على النقاش الديني: «بين العرب قليل ممن يمكن الدخول معهم في نقاش ديني، أما البربر فغالبًا ما كانوا مستعدين لمناقشة نقاط العقيدة بروح ودية».[2] ويعزى الفتح العربي الكامل للبربر إلى انعدام الوحدة التي سادت شمال إفريقيا خلال فترة حكم القبائل البربرية بعد العصر الروماني. ومع ذلك، في بداية القرن الثامن الميلادي، اشتكى السكان من الحكم الاستبدادي للعرب، الذين أخذوا بنات البربر للعيش في حريم سوريا، مما أدى إلى ثورات متكررة سُحقت دائمًا.

يُطلق اسم «البربر» على جميع السكان الأصليين لشمال إفريقيا غير العرب. من بين هذه القبائل: القبايلية في جرجرة وشرشال، الشاوية في الأوراس بالجزائر، المزابيون ووادي زناتة في واحات الصحراء، الطوارق في الصحراء، الريفيون في المغرب، والخمير في تونس.

ينتمي بربر طرابلس الغرب إلى العرق البربري، مع اختلافات طفيفة

1- من كتاب «بين بربر الجزائر» لأنتوني ويلكن. الناشر فيشر أنوين، 1900.

2-موتلينسكي، قواعد، حوارات وقاموس الطوارق. الجزائر، 1908.



مشهد رعوي - صبي بربري

في اللهجات بين القبائل. يرى البروفيسور نيومان أن المادة الأصلية للغة البربرية ليست سامية، وأن معظم الكلمات غريبة تمامًا. كتب جرابرج دي همسو عن لهجة بربر غدامس عام 1831، وأحضر جيمس ريتشاردسون ترجمة من الفصل الثالث من إنجيل متى ومفردات من اللهجة نفسها، وقد تم تحويلها إلى أحرف عربية دون تنقيط. كما درس موتلينسكي لهجة البربر في تقرت والوادي مباشرة من السكان.

يختلف البربر عن العرب في الطابع الشخصي: أكثر حيوية، نشيطون واجتهادهم أكبر، شجعان، حادو الطباع، ميالون للانتقام، وفضولهم شديد، لكن ضميرهم مرن وخرافيون للغاية. هم عرق جبلي، يبنون قراهم على المرتفعات الصخرية. في محيط مزدة ويفرن ونالوت، يظهرون بوضوح بصفتهم سكان البربر، وغالبية الأطلال القديمة في الطريق بين غريان ويفرن هي حصون بربرية قديمة.

هناك نقاش طويل حول سيادة اللون الفاتح بين البربر، وأظهرت عدة مصادر أن البربر في مناطق مزدة ويفرن ونالوت فاتحو البشرة، بشعر أشقر أو بني،[1] على عكس العرب. تختلف عاداتهم الأسرية عن العرب: رب الأسرة يحكم زوجته وإخوته الأصغر، تسود الأحادية الزوجية، وللزوج سلطة كاملة على زوجته، التي تُشترى. هناك عادة غريبة في الزواج البربري: ترافق الزوجة الشابة والدتها أو حماتها أو أقارب إناث مسنات يعتنين بها ويعملن كوسطاء بينها وبين زوجها، إذ لا يتحدث الزوجان مباشرة خلال الفترة الأولى من الزواج. الزوجة تخدم زوجها على المائدة ولا تأكل حتى ينتهي، ويمكن للزوج طلاقها دون مراسم، بينما يمكن للزوجة التمرد إذا عاملها زوجها ظلمًا. الابن الأكبر يتولى قيادة الأسرة في غياب الأب.

يُعد «الكسكسي» عنصرًا أساسيًا في الطعام، مع كعكات الشعير والتين المجفف. البربر شعب مضياف للغاية، واللحم المقدم في الكسكسي من أفضل الأنواع، ويُقدَّم كل شيء بغض النظر عن التكلفة. رب الأسرة

1-(المترجم)الصور في هذا الفصل والصور القادمة مأخودة من بيئة بدوية صحراوية ولا علاقة لها بإسلوب حياة الامازيغ.

يأخذ الملعقة الأولى ويقول «بسم الله»، ثم يسود الصمت طوال الوجبة. إذا أنهى الضيف طعامه قبل انتهاء المضيف، يتوسل المضيف إليه أن يستمر، ويأخذ الضيف بضع ملاعق إضافية قبل أن يُعلن رضاه.

تقوم النساء بجلب الماء، تحضير «الكسكسي»، نسج القماش والملابس، والغسيل. لباس الرجال والنساء مشابه تمامًا للعرب في طرابلس الغرب، أما في الجزائر فقد يرتدي الرجال أحيانًا سراويل قصيرة فضفاضة مع الجلباب والبرنس، بينما ترتدي النساء الحايك أو القميص والبرقع لتغطية الجسم بالكامل.

في كل قرية بربرية يوجد مسجد يعمل أيضًا كمدرسة لتعليم الأطفال قراءة القرآن، أما للبالغين، فهناك مكان اجتماع يُسمى «تجمّت» حيث يناقشون شؤونهم ويشربون القهوة ويدخنون.

وفقًا للعرف البربري، يجب على الرجال غير المتزوجين عدم النوم في المنزل، بل في مقهى القرية أو منزل مخصص لهم.

الطوارق هم أكثر القبائل الحربية وصعوبة في إخضاعها. لديهم عدة فئات، أبرزها طوارق الهقار، الأزجر، وطوارق أدرار. الزعامة تُنتقل إلى ابن الأخت وليس الابن، ويغطي الرجال وجوههم مع إبقاء العيون مكشوفة، لذا أُطلق عليهم اسم «الملثمين». أثناء الأكل، ينقلون الطعام بأيديهم تحت الحجاب، ويحمل بعضهم خنجرًا أو سيفًا في الذراع لزيادة قوة الضربة. الطوارق خرافيون للغاية، وتكثر بينهم أساطير الجن والجبال.

وفق الأسطورة، جاء أصل الكلمة من قصة رجل يُدعى دياب الذي عاش مع قبيلته بالقرب من تونس، وعندما نشب خلاف مع الخليفة حول بعض الإبل، خرج مع أربعين رجلاً على جمالهم. أثناء الرحلة، واجه دياب جنًا وأخضعه، وطلب منه مكافأة عبارة عن أربعين عذراء، فأُحضروا له وزوجهم لرفاقه. الأطفال الذين ولدوا بعد هجرة القبيلة سُموا «توارك»، أي «المتروكون»، نسبةً إلى أن آباءهم تركوهم لمصيرهم.



بئر في الصحراء

الفصل الرابع والعشرون: عادات البربر[1]

العادات - الأفراح بميلاد الابن- البنات لا قيمة لهن -الختان- ممارسات مسلية - التعليم بدائي إلى حد ما-خطوبة البنات- العوانس في سن العاشرة- تعاويذ للحصول على زوج-مقدمات الزواج-الـ «مهر- الاحتفالات قبل يوم الزفاف-يوم الزفاف -العروس تختبئ-حملها على الظهر إلى المنزل-مطاردة العروس في طرابلس- طريقة جديدة لتحضير «الكسكسي»-جنازات البربر- المقدمات- التميمة وملاك الموت-التعازي- الأربعون يومًا وشرحها.

عادات البربر في أعيادهم، وكذلك في أوقات حزنهم، تظهر اختلافات كثيرة عند مقارنتها بتلك الخاصة بالعرب. هناك شيء واحد على الأقل مشترك بينهم وبين جميع الأمم الإسلامية- وهو فرحتهم بميلاد ابن. عندهم، كما هو الحال عند جميع المسلمين الطيبين، لا قيمة للبنات (حتى تظهر مسألة «المهر» على الساحة).

بين البربر، يُعلن عن ولادة صبي بشكل عام بإطلاق النار. يأتي الأصدقاء والأقارب لتهنئة الأب والأم، حاملين معهم هدايا من لحم الضأن والبيض والدجاج والعسل وما إلى ذلك. وهم يعتبرون من الشرف إطلاق المزيد من الأعيرة النارية عند وصولهم وعند مغادرتهم المنزل. أما إذا ولدت فتاة، فلا تظهر أي علامات فرح. على العكس من ذلك، يميل الأصدقاء والأقارب إلى السخرية إلى حد ما من الوالدين سيئ الحظ، بينما تُردد من كل جانب عبارة «مجرد فتاة!». ومع ذلك، تُقدم بعض الهدايا، ويتمنى أصدقاؤه للأب «تربة تسغرت» («عسى أن يكون مهرها كبيرًا!»). بعد ولادة الابن، هناك حفل كامل يتم إجراؤه خلال الأيام التي تلي عيد الميلاد. في اليوم الثالث، يُطلق على الطفل اسم آخر فرد

1-(المترجم)هذ الفصل بالكامل مقتبس من كتب ودراسات عن بلاد المغرب الاقصى ولا علاقة له بعادات أمازيغ ليبيا.

متوفى من الذكور في العائلة.

في اليوم الخامس، يُدعى من يعتبره بقية أفراد الأسرة الأكثر قدرة وذكاء في العائلة لوضع إصبعه في فم الطفل. بهذا الفعل، يعبر عن رغبته في أن يشبه الصبي هذا الشخص يومًا ما. في اليوم السابع، تُذبح شاة، ويدعى جميع الأقارب والأصدقاء إلى الوليمة. ويقام يوم عظيم من الفرح عندما يتمكن الطفل الصغير من الجلوس منتصبًا. يجلس على الفور في طبق كبير من «الكسكسي» بينما يُصب الحبوب على رأسه، كدليل على الازدهار المستقبلي الذي يأمله الجميع. أخيرًا، عندما يُخرج الطفل من المنزل لأول مرة، يقوم الجيران بتقديم بعض الهدايا له. أفترض أن هذا يُغفل إذا كان المولود فتاة.

يتم الختان بين البربر في سن أصغر بكثير مما هو عليه بين العرب، ولكن كما هو الحال معهم، يُتخذ مناسبة للأفراح العظيمة. تقام وليمة مهمة في ذلك اليوم، لجميع الأقارب والأصدقاء، وترفع النساء صرخات الفرح العالية في هذه المناسبة، كما هو الحال في جميع الأعياد الأخرى. في نهاية الوليمة، يقدم كل ضيف هدية من المال للموسيقيين، والرجل الذي يتلقى الهدايا في يديه ينادي بصوت عالٍ بالمبلغ الذي تلقاه من كل شخص. يبدو أن هذه طريقة عملية للغاية للحصول على مبلغ كافٍ.

لدى البربر عادة غريبة تهدف إلى حماية الصبي من أمراض الغدد. عندما يبلغ من العمر أربع أو خمس سنوات، يتم شراء بعض كلى الأغنام من السوق. بعد تقطيعها إلى سبع قطع، يمد جده أو أحد أعمامه قدمه للطفل قائلاً في نفس الوقت: «ضعها هناك يا كلب!» يضع الصبي قطعة من الكلية على القدم الممدودة له، فيقول الرجل: «خذها يا كلب!» يتم هذا الأداء مع كل قطعة من القطع السبع على التوالي. يعطي البربر أبناءهم حرية كبيرة في مسألة التنشئة والتعليم. بعيدًا عن معاقبتهم، يشجعونهم لإتّباع غرائزهم؛ في الواقع، حتى يومنا هذا، في بعض القبائل، لا يُعتبر الشاب البربري بالغًا حتى يُميّز نفسه بسرقة حصان أو بعض الأغنام دون

أن يُكشف أمره. ليس قبل ذلك الحين يُحكم عليه بأنه قادر على حمل بندقيته والانضمام إلى التجمّت.

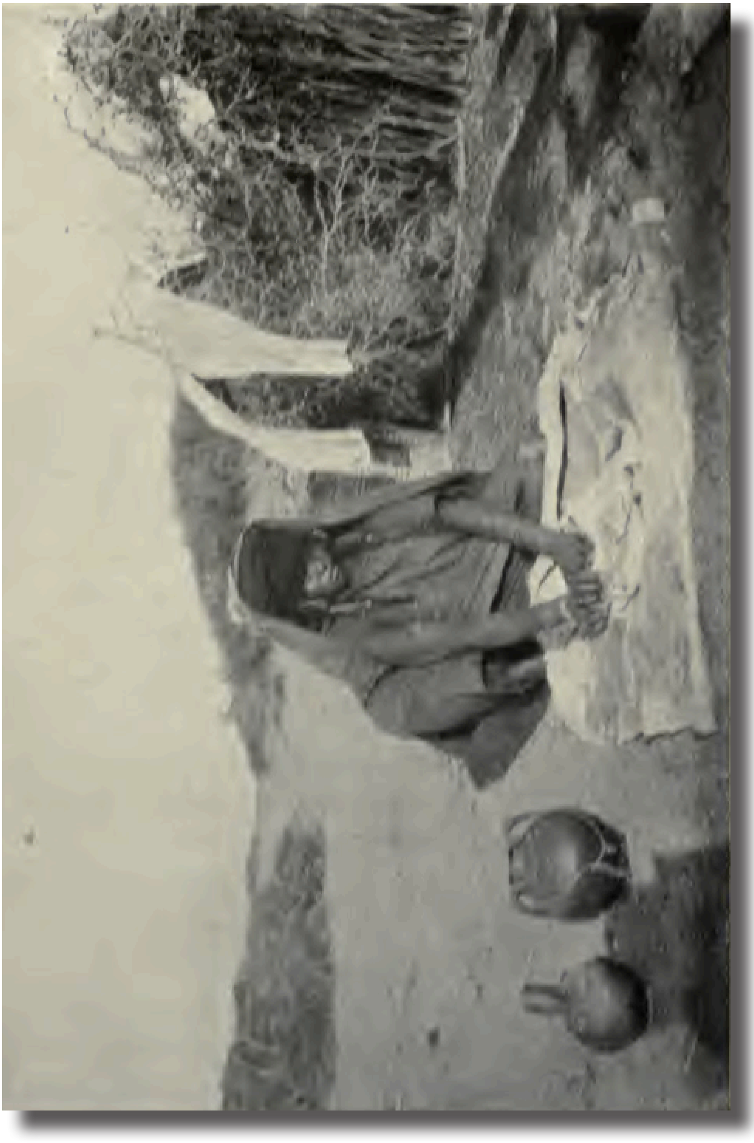
بالطبع، ينشغل الأب فقط بتعليم (!) ابنه، دون أي اهتمام على الإطلاق بتربية ابنته - فهذا الأمر متروك بالكامل للأم. تُعلَّم النسيج، وطهي «الكسكسي» الذي لا مفر منه، وجلب الماء من البئر. في سن الثامنة أو العاشرة، يبدأ والداها في التفكير في مسألة إيجاد زوج مناسب لها. مع هذه القبائل، كما هو الحال مع العرب، ومن العار الفظيع أن تذهب فتاة دون أن تُطلب للزواج. وغالبًا ما «تُخطب» الفتاة البربرية وهي طفلة رضيعة، وبالتأكيد قبل أن تبلغ العاشرة من عمرها، وتتزوج في سن الثانية عشرة. إنها تعتبر نفسها ويراها الجميع «عانسًا» إذا لم تكن «مخطوبة» قبل سن العاشرة.

تذهب أمها، وهي قلقة بشأن الأمر تمامًا مثل الفتاة، لرؤية مرابط، والذي من المحتمل أن يصف لها طقسًا غامضًا يؤمن به هؤلاء الناس الخرافيون إيمانًا تامًا. الخرافة المفضلة جدًا هي كما يلي. تأخذ أم الفتاة في يديها بيضًا، فاصوليا وخضروات أخرى، وتلقيها في أثر خطوات من ترغب به لابنتها. وفي بعض الأحيان، تأخذ الفتاة نفسها بيضة مباركة من مرابط، وتلقيها على المكان الذي سيمر فيه الزوج المنشود. على أي حال، بطريقة أو بأخرى، حتى أبسط الفتيات البربريات ينجحن في النهاية في الحصول على زوج، الذي سيطلقها على الأرجح في أقرب وقت ممكن. وهي غير مبالية تمامًا بذلك - على الأقل يُمحى عار عدم طلبها للزواج أبدًا!

لدى البربر عادات مختلفة تمامًا في مهرجانات زواجهم عن تلك المستخدمة في حفلات الزفاف العربية. تختلف المقدمات أيضًا بشكل كبير. اختيار العروس هو خطوة مهمة تشغل اهتمام والدة العريس المستقبلي. بمجرد أن يتم اتخاذ قرار زواجه، تبدأ بالبحث بين معارفها وأصدقائها عن زوجة ابن تناسبها هي وابنها. تسأل جيرانها بمهارة عن شخصية الفتاة الشابة التي اختارتها عقليًا بالفعل لتكون زوجة ابنها

المستقبلية. تحاول اكتشاف أذواقها، والتأكد من عدم وجود أي عيب أو نقص وراثي لديها. ثم تخبر زوجها، الذي يذهب مع أحد أصدقائه لزيارة والد الفتاة، لأن الفتيات البربريات لَسْنَ منعزلات مثل النساء والفتيات العربيات، وسيكون قادرًا على الحكم بنفسه ما إذا كان كل شيء كما أبلغته زوجته. إذا حالفه الحظ السعيد لإرضائه، فإنه يدخل في مفاوضات مع والدها حول مقدار «المهر» الذي سيُرسل إلى الأخير. ثم يتم تحديد يوم «المياغل»، أو التسوية - أي عندما يتم الترتيب العلني لشراء الفتاة، وتحديد مبلغ «المهر» بشكل نهائي، في شأن يشبه تمامًا صفقة تجارية. في ذلك اليوم يذهب والد العريس مع مرابط إلى منزل الخطيبة، حيث يتناول فور وصوله وجبة تتكون من عجة أو كسكس. بعد الانتهاء من ذلك، يبدأ المرابط في محاولة خفض سعر «المهر» قدر الإمكان، فهذا هو السبب الوحيد لوجوده في المقابلة التجارية. عندما يتم تسوية كل شيء أخيرًا، يعلن الزواج الذي أقره الله، ويمنح البركة. بعد ذلك يتعانق الأقارب بينما يقدم والد العريس هدايا للعروس المستقبلية - منديل حريري، ولفة طويلة من القماش، وبرقع.

ثم يذهب الجميع إلى منازلهم، مطلقين النار كعلامة على الفرح. بعد انقضاء فترة معينة، يذهب والد الخطيب إلى منزل الخطيبة لدفع «المهر» الذي تم المساومة عليه كثيرًا. تتم هذه الزيارة دائمًا في الليل. المرابط الذي يرافقه يبذل محاولة أخرى وأخيرة لخفض المبلغ. عندما يتم تسليم المال أخيرًا، مع الهدايا التي ترافقه دائمًا، والتي تتكون من الأغنام والمناديل الحريرية والزبدة وما إلى ذلك، يتم النطق بالبركة مرة أخرى ويعود الجميع إلى ديارهم. بعد بضعة أيام، تحضر والدة الخطيب، برفقة نساء أخريات، جهاز العروس إلى زوجة ابنها المستقبلية. تأخذ معها أيضًا طفلاً أو امرأة لتمثيل الخطيب في العيد، لأن العريس يجب ألا يرى عروسه قبل يوم الزفاف الفعلي. بمجرد وصولهن، تسرع الصديقات والأقارب من النساء لفحص الجهاز، ثم يتبع ذلك حفل سحق الحناء، الذي يلعب دورًا كبيرًا



غسيل الملابس

في الحفل كما هو الحال في أعياد زواج العرب. تمسك الخطيبة وممثلة الخطيب بالساق المعدنية التي تستخدم لسحق الحناء وتطحنان الأوراق معًا في الهاون. في نفس الوقت، يسكب القليل من الماء في الخليط، ويمثل الأخير الحلاوة، تمامًا كما يمثل المدق قوة الأسرة. ثم توضع الحناء على إحدى يدي الخطيبة وعلى يدي وقدمي الخطيبة. طوال الوقت، كان الموسيقيون يصدرون أكبر قدر ممكن من الضجيج، وتطلق النساء زغاريد «لولو» مستمرة. يتبع ذلك وليمة، وعندما تنتهي، تبدأ الموسيقى مرة أخرى، وتستمر حتى وقت متأخر من الليل.

في يوم الزفاف، تذهب العروس للاختباء في منزل أحد أقاربها أو أصدقائها. يبحث عنها الموسيقيون في كل اتجاه؛ في الواقع، هناك من يقولون إن هذا الهروب من الخطيبة ليس له هدف آخر سوى إطالة متعة الموسيقى في القرية التي تختبئ فيها. إذا تم العثور عليها على مسافة ما من منزلها، فإنها تقوم برحلة العودة على ظهر بغل، ولكن إذا كان مكان الاختباء قريبًا، فإنها تركب على ظهر امرأة وتعود إلى المنزل بهذه الطريقة الغريبة. بعد الانتهاء من التزين، تركب العروس بغلتها، التي ستقودها والدتها، التي سبق أن ربطت الحزام حول عنق الحيوان. سيكون هذا بمثابة لجام، وهي تتوقع من والد العريس أن يدفع لها ثمن الحزام. بهذه الطريقة، تُقاد العروس إلى منزل العريس، يسبقها الموسيقيون وترافقها أغاني النساء. تُطلق الأعيرة النارية على طول الطريق حتى لا ينقص شيء في الإجراءات. عندما يصل الموكب إلى منزل الخطيب، يقابلها هو أو أحد أقاربه عند العتبة أو على سطح المنزل ويرمي عليها حفنة صغيرة من التراب. في بعض القبائل، يوجه الخطيب ضربة بقبضته للعروس وهي تدخل باب المنزل، لإثبات تفوق الرجل، أو، وفقًا لتفسير آخر، لتدمير قوة التعويذة التي حصلت عليها والدة العروس. من المرابط، والتي ستتمكن الزوجة المتزوجة حديثًا من خلالها من حكم زوجها. يتكون هذا السحر من قطعة من الورق موجودة في تميمة، والتي ستضعها الزوجة بمهارة تحت السجادة

أو الحصيرة في ليلة الزفاف الأولى. قبل النزول من البغلة، تقبل الخطيبة عتبة الباب كدليل على عاطفتها للمنزل الذي سيكون من الآن فصاعدًا منزلها. بمجرد أن تضع قدمها على الأرض، يسرع أصدقاؤها لوضع أكبر عدد ممكن من الأطفال على البغلة، لضمان أن يكون لديها عائلة كبيرة. عند دخولها المنزل، تُقدم لها محراث، مربوط به عصا. تحركها ذهابًا وإيابًا لبضع ثوانٍ لجلب وفرة من المحاصيل الجيدة لأسرتها. تقام الآن وليمة الزفاف، تليها هدية من المال، يقدمها الضيوف للزوجين حديثي الزواج. ثم تبدأ الرقصة، التي يؤديها في بعض القبائل الرجال والنساء، وفي قبائل أخرى الرجال فقط. هناك عادة غريبة، أخبرني بها ضابط إيطالي عاش لبعض الوقت بين قبائل البربر في طرابلس، وهي مطاردة العروس من قبل العريس. الأولى، وهي تمتطي جملاً سريعًا، يطاردها الخطيب، الذي يرافقه أصدقاؤه، جميعهم يمتطون خيولًا جيدة، ويجب عليه أن يمسك بها بأن يكون أول من يلمس الجائزة الجميلة بيده.

في اليوم التالي للزفاف، يُعد طبق "كسكسي" بطريقة أصلية مميزة. إذ يُطبخ في الماء الذي استخدمته العروس في حمامها. يُوضع هذا الطبق على "حايك" ويُحمل أولاً إلى العروس، وبعد ذلك يُقدم لبقية الحضور. بعد ذلك، تُركب العروس على بغل وتُقاد إلى قبر مرابط، حيث يجب عليها أن تدور حوله سبع مرات. (في بعض القبائل، يجب على العروس نفسها أن تحضر الكسكسي، الذي من المفترض أن يجلب الحظ السعيد للمنزل.) بعد عودتها إلى المنزل، يُسرّح شعرها، ويُربط الحزام حولها، ويجلس أفراد عائلتها، مع أفراد عائلة زوجها، لتناول وجبة من لحم الماعز. ينضم المرابط إلى الوليمة، وبعد ذلك يقدم بعض النصائح الجيدة للزوجين الشابين حول حياتهما المستقبلية معًا. يستمر شهر العسل لمدة سبعة أيام، لا تعمل خلالها الزوجة الشابة، وفي اليوم السابع تزور هي وزوجها والديها، حاملين لهما الهدايا.

هناك مراسم دينية أكثر مراعاة في جنازات البربر منها في جنازات

العرب. في الليلة التي تسبق الدفن، يُدعى جميع مرابطي المنطقة لقضاء الليلة بالقرب من جثمان المتوفى، وهم يتلون آيات من القرآن. في نفس الوقت، يحرقون البخور، ويسكبون القليل من الماء، الذي جُلب من بئر زمزم المقدس في مكة، على الجثة، التي تُغسل وتُكفن بعد ذلك يُلبس «حايكًا» أو قطعة قماش طويلة تسمى «حمل» ويُحمل في موكب إلى المقبرة على أنغام ترديد صيغة «الله أكبر!» («الله أكبر!»). عند الوصول إلى المقبرة، يتلو المرابط صلاة الميت، ويكررها جميع الحاضرين. يعتقد البربر أنه إذا كرر أكثر من أربعين شخصًا هذه الصلاة، فإن روح المتوفى تصعد مباشرة إلى السماء. خلال هذا الوقت، يتم حفر قبرين، أحدهما أكبر من الآخر، وفي الأخير يوضع الجسد، مستلقيًا على جانبه الأيمن، ووجهه متجهًا نحو الشرق. يضع المرابط تميمة على صدر المتوفى، مخصصة للرد باسمه على عزرائيل (ملاك الموت)، الذي سيسأله: «من ربك؟» إذا أجاب الميت، وقد فوجئ، «أنت ربي»، ضربه عزرائيل بعصاه. أما إذا أجاب: «الله، هو الذي خلقك وخلقني!»، فإن الملاك يتركه في سلام.

وفقًا للبربر، يجد الصالحون بعد الموت نورًا عظيمًا في القبر، لكن الأشرار يُلفون في ظلام حتى يوم القيامة.

بعد الجنازة، يصطف الأقارب بالقرب من القبر (وهي عادة أشرت إليها في فصلي عن الجنازات العربية)، بينما يعزيهم أصدقاؤهم، قائلين: «لتكن بركة الله على رؤوسكم». إذا كان المتوفى ابناً، يقولون: «ليعطك الله ابناً صالحاً»؛ وإذا كانت ابنة، تتغير الصيغة إلى «ليعطك الله ابنة أخرى». في هذه الأثناء، يكون حفارو القبور قد غطوا القبر الأصغر (الذي يقع تحت الأكبر) بالحجارة، وملأوا القبر الأكبر بالكامل، ووضعوا فوقه حجرين، واحد عند الرأس وواحد عند القدمين إذا كان المتوفى رجلاً، وثلاثة أحجار، واحد عند كل طرف وواحد في المنتصف، إذا كانت امرأة. تُقدم القرابين من الطعام للفقراء مساء يوم الجنازة ومرة أخرى يوم الخميس التالي، بينما تُؤخذ عدة أطباق من «الكسكسي» إلى المسجد في

اليوم الأربعين بعد الجنازة. في هذا اليوم أيضًا، يوضع الطين على القبر ليغلقه تمامًا. التفسير الذي يقدمه البربر هو أن ملاك الموت يزور المتوفى في قبره لمدة أربعين يومًا. إذا كان رجلاً صالحًا، لا يؤذيه عزرائيل، أما إذا كان شريرًا، فإن الملاك يضربه كل يوم، وينهي الأمر بتدميره تمامًا في اليوم الأربعين.[1]

1- الكثير من هذه المعلومات مأخوذ من كتيب، «عادات وتقاليد القبايل»، الذي وقع مقدمته جول مايستر.

الفصل الخامس والعشرون: فولكلور البربر[1]

ابن آوى والأرنب-الدجاجة السوداء لعلاج الصداع-خرافة السن-علاج الإيمان»-الكاهنة-الدراويش-فقراء البربر-التمائم-قدم النيص-»العين الشريرة» -علاج الماء ضد «العين الشريرة»-الملائكة الحراس-الفولكلور-التشابه مع القصص الخيالية الألمانية-البربري والصقر-الأصل الهندي لبعض الأساطير-التأثير العربي-الحصان السحري»-قصة قبائلية عن قلادة اللؤلؤ-خاتمة.

من بين الخرافات العديدة لدى البربر، هناك الكثير مما يحمل تشابهًا وثيقًا أو يتطابق مع تلك الموجودة لدى العرب والشعوب الإسلامية الأخرى. على سبيل المثال، يعتبر لقاء ابن آوى علامة على الحظ السعيد، كما هو الحال في بعض أجزاء الهند. ولكن إذا عبر أرنب طريقك في الصباح، فسوف تسمع حتماً أخباراً سيئة، أو تواجه حظاً سيئاً. وينطبق الشيء نفسه على الغراب. أعتقد أن هاتين الخرافتين شائعتان أيضًا في إنجلترا؛ على أي حال، أتذكر أنني سمعت عنهما وأنا طفل من أهل الريف. لكن لدى القبائل والعرب، مع ذلك، مقولة يرددونها للمسافر:

«ادعُ الله أن لا تقابل إلا ابن آوى في الصباح والأرنب في المساء». من الأقوال الشائعة بينهم أنه إذا صاح ديك على العتبة، فسيصل ضيوف.

أما بالنسبة للخرافات المتعلقة بالمرض، فهي لا حصر لها، وكلها تُنسب إلى الجن، أو الأرواح الشريرة. إذا عانى بربري من صداع متكرر، يشتري دجاجة سوداء من السوق. تُطرد الطائر إلى المنزل لمدة ثلاثة أيام متتالية، وتُذبح في اليوم الرابع، ويأكلها المريض، الذي يحمل بعد ذلك عظام الدجاجة إلى المقبرة ويضعها على قبر غريب. لديهم خرافة غريبة أخرى تتعلق بقلع السن الأولى. يجب أن تُلقى على سطح المنزل، لأن ذلك

1-(المترجم)هذ الفصل بالكامل مقتبس من كتب ودراسات عن بلاد المغرب الاقصى ولا علاقة له بفلكلور أمازيغ ليبيا.



عمل الكسكسي

سيجلب المال للأسرة.

المرابط، الذي هو أيضًا طبيب، يلعب دورًا كبيرًا في «العلاجات». من الممارسات المفضلة لدى البربر أخذ بيضة إلى القديس، الذي يكتب عليها بعض الكلمات من القرآن، وبعد ذلك يجب على المريض أن يأكل البيضة، قشرها وكل شيء، وبالتالي يضمن الشفاء التام من أي مرض. أفترض أن الإيمان يقطع شوطًا طويلاً. هناك عادة أخرى تشبه إلى حد كبير تلك التي وصفتها بالفعل في فصلي عن خرافات العرب، وهي شائعة أيضًا بين البربر. في حالة الحمى، يكتب المرابط آية من القرآن على قطعة من الورق ويغسل الحبر في القليل من الماء؛ يجب أن يشرب المريض هذا الماء.

المريض. أو قد يكتب الآية على قاع كوب، ثم يصب فيه القليل من الماء. في كلتا الحالتين، من المفترض أن يؤدي الشراب إلى الشفاء التام، وقد أكد لي أنه في خمس حالات من أصل ست، يترك الحمى المريض.

تقريباً لكل قبيلة بربرية ساحرها أو سحرتها الذين يُعتقد أنهم على اتصال بالشياطين وبأرواح الموتى، وكثيراً ما يُستشارون بشأن رغبات الموتى. يُعلم الساحر الأقارب بما هو ضروري أو مرغوب فيه للأرواح الراحلة، وتوضع هذه الهدايا على القبور.

يُقدم دوتيه[1] وصفًا مثيرًا للاهتمام للغاية عن الساحرات في كتابه عن السحر والدين في شمال إفريقيا. وهن مشهورات بشكل خاص بمآثر إحداهن التي تسمى عمومًا «الكاهنة»، والتي كانت تتمتع بقوة هائلة على جميع قبائل البربر في الأوراس في نهاية القرن الأول للهجرة؛ في الواقع، كان يُنظر إلى الكاهنة على أنها «ملكة البربر». أرسل حسان بن النعمان، الذي كان حاكم شمال إفريقيا آنذاك، حملة لسحق قوة «الملكة»، لكنه هُزم، على الرغم من أنه نجح لاحقًا، حوالي عام 704 م. في معركة أخرى، وهلكت الكاهنة. البربر يكنون احتراماً كبيراً للدراويش الذين لهم الحق في دخول أي منزل وطلب الطعام، وهو ما لا يُرفض أبداً. هم بشكل عام قذرون جداً، شعرهم الطويل المتلبد يتدلى حول أكتافهم، يرتدون «برقعاً» ممزقاً

1-دوتيه، «السحر والدين في شمال إفريقيا». الجزائر، 1909.

ويحملون عصا، وهي بلا شك ضرورية لإبعاد حشود الأطفال الذين يتبعون الدراويش ويعاملونهم باحترام أقل مما يظهره آباؤهم!

«العبادلة» هم فقراء البربر ويعيشون في كهوف أو في مكان آخر منعزل، يعتمدون على صدقات الأهالي. مثل كل المسلمين، ينظر البربر إلى الفقير كقديس، قائلين عند وفاة أحد العبادلة: «القديس مات». يذهب الجميع إلى الجنازة، ويُبنى مرابط على وجه السرعة تخليداً لذكراه، وهو ضريح سيصبح مزاراً للحج.

مثل العرب، يؤمن البربر إيماناً كبيراً بارتداء التمائم، كوقاية وعلاج للأمراض. أجريت العديد من الاستفسارات حول أشكال التمائم الأكثر شيوعاً، ووجدت أنها تتخذ دائماً تقريباً شكل أكياس جلدية صغيرة تحتوي على قطعة من الورق، مكتوب عليها السحر المرغوب. أحياناً تحتوي هذه الأكياس الصغيرة على قطعة من العظم باركها المرابط. قيل لي عن سحر واحد شائع بين البربر للنساء، وهو، على حد علمي، يختلف عن أي شيء رأيته بين النساء العربيات. وهو عبارة عن قدم نيص مرصعة بالفضة، وتُلبس كتميمة أثناء فترة الحمل.

ضد الحمى، يحمل البربر تميمة معلقة حول أعناقهم، تتكون من قطعة من الشاش خيط فيها بعض التراب من قبر قديس، وكوقاية من لدغة العقرب يحملون عقربًا حيًا معهم في صندوق طيني صغير. لقد صادفت كلا هذين السحرين بين العرب أيضًا، في كل من تونس وطرابلس الغرب.

يُستدعى المرابط على الفور من قبل والدي طفل يُعتقد أنه يعاني من آثار «العين الشريرة». يقيس كتفي الرضيع الواحد تلو الآخر ليرى ما إذا كانا متساويين في الطول. إذا كان الأمر كذلك، فلا يوجد تأثير شرير في العمل، ولكن إذا لم يكن كذلك، فإن المرابط يكتب على الفور بعض الآيات من القرآن على ورقة، في ثلاثة أماكن، ويحرق البخور، ويدخن الطفل. ثم يقطع الورقة إلى ثلاث قطع، تحتوي كل منها على جزء من الكتابة، ويضع

قطعة واحدة في بعض الماء حتى تذوب، ويُغسل المريض الصغير من الرأس إلى القدمين بهذا الماء. بعد هذه العملية يجب على الطفل أن يشرب الماء! يتم هذا الأداء مع القطعة الثانية من التميمة في اليوم الثاني، وفي اليوم التالي مع الثالثة. عندما يكون المريض قد ابتلع كل الماء، يُدمر تأثير «العين الشريرة».

من معتقدات البربر التي هي فكرة ساحرة حقًا أن لكل طفل ملاكه الحارس. وهؤلاء الملائكة يلحقون الأذى بكل من يوقظ الرضيع النائم في مهده. حتى أم الطفل يجب أن تنتظر حتى يستيقظ الطفل من نومه.

جمع الفولكلور الخاص بالبربر صعب جدًا، على الرغم من أنك عندما تتمكن من العثور على بعض القصص والأساطير التي تناقلها هذا العرق من جيل إلى جيل، فإنها تثبت دائمًا أنها تستحق عناء التنقيب عنها، وتظهر مخزونًا من الفكاهة الجافة الأصيلة، وتقدم نظرة ثاقبة لشخصية الشعب. العديد من الأساطير تحمل تشابهًا قويًا مع قصص الجنيات الألمانية التي كتبها جريم. على سبيل المثال، هناك قصة عن زوجة أب قاسية تسيء معاملة أطفال زوجها لصالح نسلها، وتُعاقب بعد ذلك جيدًا على شرها، وهي قصة تكاد تكون متطابقة مع إحدى قصص جريم.

كما ذكرت في الفصل الخاص بيفرن، رأينا العديد من الصقور ونحن نمر عبر المنطقة الجبلية. هناك أسطورة حول هذه الطيور تستحق الرواية، لأنها مسلية، وإن لم تكن مهذبة جدًا للجنس اللطيف.

ذات مرة، خرج بربري لقطع أشجار العناب، وصادف عش صقر يجلس فيه الطائر. عند الاقتراب من المكان، رأى أن العش كان داخل قدر طيني كبير، من المفترض أنه تُرك من قبل بعض البدو. سواء كان الأمر كذلك أم لا، كان الطائر نائمًا في الداخل، ولاحظ علي بريق الفضة. عند الفحص الدقيق، وجد أن الصقر قد بنى عشه فوق كومة من قطع الفضة. كان علي رجلاً تقياً، ويؤمن بقدرة الله على إعطائه ما يستحق، فترك الفضة حيث كانت، قائلاً لنفسه: «إذا أرسل الله للطائر كل هذا المال، فسوف

يرسل لي المزيد». وهكذا عاد إلى بيته. ولكن عندما روى القصة لزوجته، غضبت إلى حد ما (كما تفعل أي امرأة). قالت له: «حسنًا، إذن اجلس وانتظر حتى تمطر السماء مالاً في فمك». علي، كونه رجلاً بسيطًا، أخذ هذا حرفيًا، وجلس في زاوية كوخه لينتظر حتى يرضى الله ويرسل له قطع الفضة. جلس هناك طوال اليوم، لكن لم تسقط أي فضة من السماء. ومع ذلك، ظل إيمان علي راسخًا. في اليوم التالي، عندما خرج من منزله ليذهب إلى عمله، لاحظ عند قدميه قدرًا طينيًا كبيرًا يشبه تمامًا الذي بنى فيه الصقر عشه. كان موضوعًا كما لو أن شخصًا ما وضعه هناك عن قصد. لكن علي رأى في هذا مجرد عمل شرير من الأرواح الشريرة، لذلك مر بجانبه قائلاً: «الله الذي أعطى الطائر، سيعطيني أيضاً». عندما عاد إلى المنزل في المساء، أخبر زوجته عن الإناء، لكنها فقدت صبرها وقالت: «أنا لا أصدق قصتك. الرجال كلهم كاذبون. إذا لم تكن كذبة، فأرني الإناء». أراها علي أين تذهب، فوجدت الإناء حيث قال زوجها إنه موجود. لكن عندما نظرت إلى الداخل، يا الهول، كان مليئًا بالعقارب! لفته في «برقعها»، وحملته إلى المنزل، وبغضب شديد، أفرغت محتوياته كلها على علي. تخيل دهشتها عندما سقطت العقارب، وتحولت إلى قطع من الفضة! لأن علي كان مؤمنًا حقيقيًا. لكنه قال فقط: «الله أكبر! والنساء حمقاوات.»[1]

جاءت العديد من القصص في الأصل من الهند، ولكن تم تحويلها من خلال التقاليد البربرية. ثم هناك الكثير من التأثير العربي أيضًا، من طراز «ألف ليلة وليلة». «الحصان السحري»، وهي أسطورة بربرية قديمة، هي واحدة من هذه، تشبه بشدة قصة معروفة في ذلك الكتاب، ولكن بما أنها أسطورة جيدة ولديها العديد من النقاط التي تختلف عن النسخة العربية، أقدمها على النحو التالي:-

ذات مرة كان هناك ملك لديه ابن جميل كالقمر. ذات يوم تلقى

1-يمكن العثور على أسطورة تشبه هذه إلى حد ما في «حكايات بربر تمازرات»، بقلم الدكتور هانز ستوم. ليبزيغ، 1900.

زيارة من ساحر، أهداه حصانًا من حديد، صنع فيه نوابض لتمكينه من الصعود إلى السماء. سر الملك كثيرًا بهذه الهدية، ووضعها في جناح. ذهب ابن الملك ليلاً حتى لا يراه والده، وركب الحصان، وحرك النوابض، وارتفع عالياً في الهواء نحو السماء. ثم، بفتح النوابض، نزل إلى بلدة، على قصر ملك آخر. كان الوقت ليلاً، لكن الشاب وجد جناحًا لا يزال مضاءً، فدخله ورأى أميرة جميلة كالنجمة. خافت، لكنه تحدث إليها وقال: «أنا رجل ولست جنيًا». أعطته ليأكل ويشرب، وعندما انتهى قال لها: «تعالي معي إلى بلدي.» فأجابت: «سأذهب إذا تزوجتني.» فقال الأمير: «أعدك بذلك». ركبا الحصان، الذي حملهما نحو السماء. عندما أصبح الضوء أكثر وضوحًا، تمكن الأمير من رؤية بلدة والده، فنزل في الحديقة، وترك الفتاة الصغيرة مع الحصان، وذهب ليخبر والده بمغامرته. سر الملك كثيرًا، ولكن بينما كانا يتحدثان، ذهب الساحر، الذي كان يعرف ما حدث، على الفور إلى المكان الذي وجد فيه الحصان والفتاة. ركب الحصان وحمل الأميرة ليعطيها لملك آخر. عندما عاد الأمير ووالده وجدا

اكتشفوا فقدان الأميرة والحصان. ثم أرسل الملك رسلاً على الفور للبحث عن الساحر، وعندما رأى أن الأخير لم يتم العثور عليه، قال: «هو الذي فعل هذا الشيء». بكى الأمير بمرارة، وانتظر عبثًا. ذات يوم انطلق على ظهر حصان للبحث عن الأميرة والساحر، وأخيرًا سمع أخبارًا عنهما في بلدة بعيدة. أراد ملك هذه المدينة أن يتزوج الأميرة، لكنها رفضت، قائلة إنها ممسوسة بالجن ومريضة جدًا. لم يبد أن أي شيء يفيدها، ولكن عندما وصل الأمير وتحدث إليها تعرفت عليه وسألته: «ماذا عن الوعد الذي قطعته لي؟» فأجاب: «هذا الوعد قائم اليوم»، وبقي معها. عندما حل الليل ذهبت لتجد الحصان السحري، الذي ركباه معًا، تاركين الملك. وصل الأمير والأميرة بأمان إلى بلدة والده، وتزوجا وأنجبا طفلين، وعند وفاة والده أصبح الأمير ملكًا.[1]

1-رينيه باسيت، «حكايات بربرية شعبية»، باريس، 1887؛ وأيضًا «فون بربر»، المكتبة الوطنية، باريس.

إحدى قصص القبايل مسلية جدًا. يُروى فيها تاريخ قلادة لؤلؤ وجدتها ثلاث نساء. بما أن كل واحدة ترغب فيها، يقررن أخذ الكنز إلى ساحرة، ويسألنها عن نصيحتها، والتي مفادها أن من تستطيع أداء أروع خدعة ستفوز بالجائزة. تستمر الحكاية لتخبر كيف تخطط كل امرأة لخداع زوجها. إحداهن، متزوجة من تركي «ذي لحية طويلة»، تخدّر زوجها وتلبسه زي حارس، ملتحٍ مثله، كانت قد خدّرته هي الأخرى بطبق من «الكسكسي». الزنجية التي تحمل الجندي المخدر إلى منزل سيدتها تعود بالتركي فاقد الوعي على ظهرها، تاركة إياه مكان الجندي. عندما يجد الرقيب الحارس نائمًا، يغضب ويركله حتى يستيقظ. يذهل التركي بطبيعة الحال عندما يجد نفسه في الخدمة كحارس ويحاول أن يشرح. لكنه لا يزيد الأمر إلا سوءًا، ومرعوبًا من تهديد السجن، يبقى صامتًا في موقعه. في هذه الأثناء، يستيقظ الجندي الحقيقي ليجد نفسه في سرير في منزل غريب. إنه أكثر حيرة من التركي، ويحاول الخروج من السرير للعودة إلى موقعه. لكن زوجته (المفترضة) تأمره بالعودة إلى النوم وعدم إزعاجها بهرائه. نعسان جدًا للمجادلة، يطيع؛ عندما يستيقظ تعطيه المرأة بعض الطعام، وهو مخدر مرة أخرى. ثم ترسل الزنجية إلى زوجها، الذي لا يزال يؤدي الحراسة، بطبق طعام ممزوج بمخدر. بعد تناوله يغفو وتحمله الزنجية إلى المنزل، التي تعود مع الجندي، الذي تتركه في موقعه. دهشته

دهشته وحيرته عندما يستيقظ ليجد نفسه مرة أخرى حارساً لا يضاهيها إلا دهشة التركي الذي يفتح عينيه ليجد نفسه مرة أخرى في سريره. لا يستطيع أي منهما حل اللغز، لذلك يستنتج كل منهما في النهاية أن كل شيء كان مجرد حلم، وتسرع المرأة بقصتها إلى الساحرة، التي، بعد أن سمعت النساء الأخريات يروين محاولاتهن للفوز بالجائزة (جهودهن معقدة إلى حد ما وأقل تسلية بكثير من التي رويتها هنا)، تمنح القلادة لزوجة التركي.

كما يقول ابن خلدون، يروي البربر كمية كبيرة من القصص،

لدرجة أنه لو كُتبت، لملأت مجلدات. هذا يعني أنهم يروونها فيما بينهم، لكنهم ليسوا مولعين جدًا بتكرارها على الغريب. سألت ذات مرة عربيًا في القيروان لماذا يصعب العثور على راوٍ يخبرنا ببعض الحكايات التي يروونها لبعضهم البعض، فقال: «لأننا نخاف أن يسخر منا». ربما لدى البربر نفس الشعور.

الفصل السادس والعشرون: انطباعات أخيرة

ساحة السوق في المساء - الميناء - وداعاً طرابلس - «ما فيش!»

لقد حان مساءنا الأخير، ونحن نتجول بعد العشاء لنودع المدينة، وللمرة الأخيرة نزور سوق الخبز، ذلك المركز للحياة المحلية في طرابلس، الذي هو دائمًا خلاب وجذاب، بغض النظر عن أي ساعة من النهار أو الليل. ففي المساء هنا، ينام العرب، ملتفين في «برقعاتهم»، تحت النجوم. هنا الآن، في التاسعة مساءً، كل شيء هادئ وغامض. توقفت الشاحنات الصاخبة عن حركتها، والجمال تستمتع براحتها التي تستحقها، حتى الحمير العاملة بجد في سلام. السماء الزرقاء الداكنة مرصعة بكثافة بالنجوم، والهواء ساكن وعليل، والأكشاك المزدحمة مغلقة وصامتة - فقط هنا وهناك توجد مجموعات من العرب متجمعة حول نيرانها في العراء، يتبادلون الأحاديث ويشربون الشاي. لا يزال مقهى أو اثنان مفتوحين، ومن بعيد نسمع مرة أخرى يتردد ترنيم أغنية الحب العربية، التي تنصت إليها الشخصيات الصامتة، بينما يدخنون نارجيلة المساء.

تحت الأروقة الواقية للمتاجر المغلقة، ترقد أشكال شبحية باهتة متكومة في برانسها، غارقة في نوم عميق- منهكة بعد يوم عمل شاق. تمر بنا جماعات من الرجال يرتدون البياض من وقت لآخر، لكن سرعان ما تختفي حتى هذه الجماعات. يسحب الرجال المجتمعون حول النيران أغطيتهم فوق رؤوسهم الواحد تلو الآخر ويستلقون للنوم، وتخفت ألسنة اللهب، وينقطع صوت المغني البعيد، وتخبو الثرثرة الهامسة من المقاهي- فقد غطت ساحة السوق في سبات.

نمضي عائدين إلى ديارنا بجوار المرفأ، الراقد في الظلام والسكون، نائماً هو الآخر. تنعكس أضواء لا حصر لها على صفحة الماء الهادئة من الزوارق الصغيرة الراسية هناك. نتجول نزولاً إلى رصيف الإنزال خلف دار

الجمارك ونقف برهة لنتأمل صورة المدينة الظلية الواضحة والسوداء مقابل السماء، وأسوار القلعة القديمة العالية، ذات الطابع المميز والحاد، وهي تهيمن على كل شيء.

وهكذا نودع طرابلس، المدينة التي تعلمنا أن نحبها، والتي طبع سحرها الغريب بصمة لا تُمحى في ذاكرتنا. لقد انتهت زيارتنا. «ما فيش!»- «لقد انتهى الأمر.»

****



في الجبل

****

انتهت بحمد الله ترجمة الكتاب

سلسلة الكتب المترجمة

1. في جبال طرابلس — بقلم أوغست دو ماتويزيولو
2. أسرار الصحراء الليبية — بقلم دبليو. جيه. هاردينج كينج
3. حياة نص: كارستن نيبوهر وعبد الرحمن آغا، بقلم كاميل لوفيفر
4. طرابلس الجديدة — بقلم إثيل براون



LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation